

الجمال

في مرآة أهل الفكر وعلماء البلاغة



مشورات صفحة البراعة - الرحة - 2016

تطوان - المغرب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الجمال في مرآة أهل الفكر وعلماء البلاغة

بقلم

د. يسري عبد الغني عبد الله

باحث وخبير في التراث الثقافي

[كتاب إلكتروني ينشر لأول مرة]

المراسلات: Yusri_52@yahoo.com

14 شارع محمد شاكر / الحلبية الجديدة / بريد القلعة (11411) / القاهرة / مصر .

هاتف : 23176705 محمول : 01021057359 أو 01114656533



منشورات صفحة البلاغة الرحبة. تطوان - المغرب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى زوجتي العزيزة الغالية وأم أولادي

الصبورة المثابرة

إلى ابنتي نهي وزوجها الأستاذ / وائل هارون ...

إلى ابني مصطفى وزوجته

وإلى حفيدي سلمى

وإلى حفيدي حمزة

داعياً لهم جميعاً بالأمن والخير والساد والصحّة والعافية والمستقبل السعيد

محتويات الكتاب

2	الإهداء
4	مداخلات أولية
10	الفصل الأول : عن الجمال وصلته بالبلاغة
17	الفصل الثاني : عندما يكون البحث عن الجمال هدف أهل الفكر وعلماء البلاغة
41	الفصل الثالث : من القضايا المشتركة بين البحوث الجمالية والبلاغية
54	الفصل الرابع : الجمال عند العرب
67	الفصل الخامس : الكلمة عند العرب فن الفنون وأم المواهب
88	الفصل السادس : الإبداع الشعري هو الصورة النهائية للجمال عند العرب
110	الفصل السابع : بلاغتنا الجميلة من ينقذها ... ؟ ! - محاولات لمعالم جديدة ورؤية مختلفة
127	قائمة ببعض الأسانيد والمراجع
3	محتويات الكتاب

مداخلات أولية

تمهيد :

من العواطف التي طبع عليها الإنسان ، وأودعها الله تعالى في روحه الميل إليها ، وجبله على طلبها في كل زمان ومكان : حب الجمال ، والتأثر به ، والبحث عنه ، والله جل شأنه ، جميل يحب الجمال ، وفعل القبيح والقبح تأباه الفطرة الإنسانية السوية .

والجمال في القديم ، وفي الحديث هو شغل الإنسانية الشاغل ، والبحث عنه - لأسباب كثيرة - دائم ومتواصل .

كما أن الجمال نعمة من نعم الله ، سبحانه وتعالى ، التي لا تعد ولا تحصى - ، بل هو نعمته الكبرى على هذا الوجود ، ومن فضل الله على خلقه أن جعل صور الجمال عديدة ، وألوانه كثيرة متعددة ، فإذا أردنا أن نعرف مدى فضل الله الكريم على هذا الوجود فلتأمل إبداعه للجمال فيه .

فلنتصور - ولو لثوان قليلة - خلو الحياة التي نحيها من الجمال ! ، إن ذلك - ولا شك - سيكون في نظر كل من له قلب يعي ويدرك ، الفزع الأكبر ، والخوف الأعظم ، الذي يفقد فيه المرء الحب والأمل ، وتلك لحظة من لحظات الضعف التي قد تتاب الإنسان ، يفقد فيها الإحساس بالجمال ، فينطلق بالتحطيم لكل شيء حتى نفسه ، والتخريب لكل شيء مهما كان غالياً أو نفيساً ، لأن الشعور والإحساس والإدراك والوعي بالجمال ، يجعلنا

نرى كل شيء في الوجود جميلاً ، والعكس صحيح ، لأن الجمال هو الحياة التي لها قيمة ولها معنى .

بهذه المقابلة نستطيع معاً أن نقف على قيمة الجمال في الوجود ، ونذكر أن الإحساس بالجمال معناه السعادة ، ومعناه الأمل في القادم بإذن الله ، ومعناه الحياة المشرقة المفعمة بالبهجة والخير والسرور .

والجمال سر من أسرار المولى - عز وجل - يهبه لمن أحب من عباده ، فيضع في قلبه الأمل ، وفي نفسه الخير ، وفي روحه الصدق ، بل يجعله في شوق دائم إلى الحق والعدل والسلام والتسامح والنقاء .

جانب من الجمال:

وفي رحلتي الطويلة المتواضعة مع البحث والدرس ، مع القراءة والكتابة ، كنت أحاول دائماً أن أتعرف على جانب من هذا الجمال ، فهالني أن وجدت كثيراً من المعاني والأفكار الجمالية ، يلتقي عندها علماء البلاغة العرب ، ومفكرهم ، مع مفكري اليونان ، وأيضاً مع مفكري عصرنا الحديث ، وبمعنى أوضح مع كل أهل الفكر والنظر في القديم والحديث ، وعندما أقول لك علماء البلاغة فإنني أقصد بلغة عصرنا النقاد على مختلف اتجاهاتهم .

ناهيك عن أن الإحساس بالجمال والتطلع إليه ، قدر مشترك بين سائر الشعوب والأمم التي تعيش فوق المعمورة الأرضية ، وإن تفاوتت في كيفية التعبير عنه ، أو التعمق في

فهمه ، ولسان حال الجميع يقول : لعن الله القبح ومن دعا أو يدعو إليه في كل زمان ومكان.

و نؤكد خلال هذه السطور على أنه لا توجد ثقافة بشرية مهما كانت تدعو إلى القبح، أو تنادي بمقاومة الجمال ، وعليه فلا يوجد مبدع أو مفكر أو مثقف في دنيانا لا يقر بفضل الجمال ، ولا يدعو إليه ، لأنه لو فعل ذلك فهو خارج عن الفطرة النقية السوية التي جبلنا الخالق الأعظم عليها.

التقارب بين المفكرين وعلماء البلاغة :

وقد زاد من شدة التقارب بين المفكرين وعلماء البلاغة حول الفكر الجمالي أو موضوع الجمال ، أن معاني البلاغة كثيراً ما تلتقي مع المفاهيم الجمالية ، وهذا يجعلنا نقول : إن ما تقبله البلاغة محال أن يرفضه الجمال ، وما تنفر منه لا يقبله بأي حال من الأحوال .

وعلينا إذا أردنا الحديث في موضوع الجمال بين أهل الفكر وعلماء البلاغة ، أن نركز على إبراز المعاني المشتركة بين الجمال والبلاغة ، وأن نعمل كباحثين إلى التذكير الدائم بالنقاط الظاهرة أو الواضحة الجلية في مفهوم الجمال عند أهل الفكر مثل : النظام ، والخير ، والنفع ، والإمتاع ، والتناسب ، والوضوح ، والحب ... إلخ ...

كل ذلك جاء عندما تكلم علماء البلاغة والنقد العرب عن مفهوم البلاغة ، ومما يوحي أن البلاغة العربية في إطارها الأدبي الواسع ، بما تحويه من إرشادات و ملاحظات تتناول الإبداع الشعري أو النثري ، كانت تقوم مقام الدراسات الجمالية عند المفكرين .

وفي رأينا أن الوقوف حول جزئية قيام البلاغة مقام البحث الجمالي عند نقادنا العرب ، يجب أن تأخذ منا الدرس الكافي ، والبحث المتأن ، على أمل أن نضع الأساس المتين للسير في هذا الطريق الذي قد يكشف عن الكثير من إنجازات رجال النقد العربي التي

غابت عن الكثيرين ، أو بمعنى آخر الذين قاموا بتجاهلها عامدين متعمدين ، مكتفين باستيراد النظريات النقدية التي لا تصلح للتعامل مع إبداعنا الأدبي بمختلف أجناسه ، داعين الله تعالى أن يأتي بعدنا من يواصل خطوات السير في هذه المسألة ، مع تعميقها وإضافة الجديد إليها إن شاء الله تعالى ، واضعين في الاعتبار أن نسلك جميعاً المسلك العلمي في البحث ، بعيداً عن الأسلوب الانطباعي أو التأثيري السريع الذي لا يفيد الأدب أو الفكر بقدر ما يضره ضرراً كبيراً .

وعليه فلا عجب أن نجد العديد من القضايا المشتركة في بحوث البلاغة والجمال ، مثل : موضوع المادة والصورة ، وموضوع الشكل (الصياغة) و الموضوع (المضمون) .

ثم مسألة أخرى ألا وهي القيمة الفنية للجمال أو البلاغة ، وهل تكمن في الكل أو الجزء ؟ ، وفي رأينا : أن الذوق له دوره المهم في استنباط البلاغة ، والجمال هو الجدير بالتأكيد والبحث عنه ، وتقديره وتقويمه ، فبدون الدراية بالجمال ومعناه لن نصل إلى الذوق الراقي المتحضر الذي بدونه لن يكون هناك سمو أو ارتقاء أو تحضر .

مع مراعاة أن الذوق الذي نعنيه هو الذوق المدرب الواعي ، وهو لا يتأتى إلا من الدربة والدراية والممارسة والتعامل مع جميع الأجناس الأدبية في القديم والحديث ، كل ذلك مع ثقافة واسعة شاملة في كافة الآداب والفنون ، وبدون أن نقرأ ونتتقف فمحال أن نعي الجمال ونجعله طريقنا القويم .

مفهوم الجمال عند العرب :

ولا يستطيع منصف أن يدعي أن مفهوم الجمال عند العرب كان من العمق والاتساع والشمول بمثل ما كان عليه عند مفكري اليونان ، وإن كان إحساسهم بالجمال لا يقل كثيراً بحال من الأحوال عن أي أمة من أمم المعمورة البشرية .

والحق يقال : إن الحس الجمالي عند العرب كان مرهفاً ، وواضحاً ، وإن بدا في أول الأمر حسياً ، وغالباً ما كانت المرأة أوضح صوره ومحاوره .

ثم تطور الجمال بعد ذلك بفضل الدعوة الإسلامية الغراء السمحاء ، ومبادئها الداعية إلى الحق والخير والجمال ، انطلاقاً من أن الله - سبحانه وتعالى - جميل يحب الجمال في كل شيء ، في المظهر والمحر ، وعليه فإن الإسلام شمل المعنويات ، مفضلاً إيها عن الحسيات أو الماديات الزائلة ، ووصل الأمر عند بعض مفكري العرب والمسلمين إلى القول بأن جمال الروح ، أمتع وأبقى من جمال المادة ، ونحن بدورنا هنا نلح ونؤكد على أن جميع الأديان تدعو إلى الجمال والخير والحق ولا فرق بين دين وآخر في ذلك .

سؤال وإجابة :

وهنا نجد أنفسنا تجاه سؤال مهم ، نحاول الإجابة عليه قدر الطاقة ، والسؤال هو : عما إذا كان للعرب إحساس بالجمال ، وفكر فيه ، فلماذا لم تقم لهم فيه نظريات معروفة ، وفكر مشهور ، كما كان لمفكري اليونان ؟ !

والجواب كما يتصوره كاتب هذه السطور يرجع إلى طبيعة العرب وبيئتهم ، والتي وجهتهم إلى الاهتمام باللغة العربية الشاعرة ، والتفنن فيها ، إذ كانت أخف محملاً في المنشط والمكسل ، وأسهل تناولاً للفرد والجماعة ، ولذلك برعوا فيها كل البراعة ، وأتوا منها بالعجائب ، فكانت مرسومهم ، ومنحتهم ، ومسرهم ، ومغناهم ، ومسلاهم ، وموسيقاهم .

بل كانت في الواقع جماع آدابهم ، ومجتمع حكمهم ونصائحهم ، ولا مبالغة من جانبنا إذا قلنا : إن اللغة العربية كانت عند العرب بحق فن الفنون ، وأم المواهب .

صلة الجمال بالبلاغة :

قد يبدو غريباً وللهذه الأولى أن يكون الجمال قاسماً مشتركاً بين المفكرين والبلغاء في البحث العلمي ، ولكن الذي يتبع آراء أهل الفكر ، ونظرات البغاء ، يستطيع أن يدرك من خلالها أن التعبير عن الجمال والبحث عن مظاهره وصوره الحسية والمعنوية ، كان أعظم الغايات التي يهدف إليها كل من المفكرين ورجال البلاغة .

إن غاية كل من الفريقين هو تحقيق السعادة للبشر جميعاً في دنياهم وأخراهم ، وبيان أن معرفة الجمال الحق بما فيه من صدق وإخلاص إنما يهدي إلى مصدر الجمال الأول ، والجميل أو المبدع الأول ، وهو الله - عز وجل - ، ومن هنا فإن ذلك جدير ، إذا تم وذاع وانتشر ، بإسعاد البشرية جمعاء في كل مكان .

وهنا نهمس في أذن كل باحث في هذا الموضوع ، أنه حتى لا تستبق الأحداث ، فإنه يتعين عليك أن تلتقط الخيط من بدايته ، وتدرس الموضوع من أوله ، وهذا يتطلب منا أن نتعرف على المعاني اللغوية للجمال ، وعلاقتها بمعاني البلاغة ، فربما ساعدنا ذلك على معرفة العلاقة المتينة المرتكز عليها في إقامة صلة قوية بين الجمال والبلاغة .

وبعد ، فإن هذه السطور المتواضعة أو هذه العجالة السريعة ، لا تدعي أنها قدمت المطلوب ، أو وفّت على الغرض ، فهذا منها أمل نرجو أن يتحقق في ظروف بحثية أوسع .

وبحسبنا الآن أن نشير إلى مجال خصب ، ومنطلق فسيح يعود على الدراسات الأدبية والنقدية والبلاغية منها بوجه خاص بالعمق المطلوب الذي فحواه دقة التحليل وسلامة التعليل .

الفصل الأول

عن الجمال وصلته بالبلاغة

تمهيد :

قد يبدو غريباً وللنظرة الأولى أن يكون الجمال قاسماً مشتركاً بين المفكرين و علماء البلاغة في البحث العلمي ، ولكن الذي يتبع آراء أهل الفكر ونظرات أهل البلاغة ، يستطيع أن يدرك من خلالها أن التعبير عن الجمال والبحث عن مظاهره وصوره الحسية و المعنوية ، كان أعظم الغايات التي يهدف إليها كل من المفكرين ورجال البلاغة .

إن غاية كل من الفريقين هو تحقيق السعادة للناس جميعاً في كل زمان ومكان ، في دنياهم وآخرهم ، وبيان أن معرفة الجمال الحق بما فيه من صدق وإخلاص إنما يهدي إلى مصدر الجمال الأزلي الأول ، والجميل أو المبدع الأول، وهو الله - عز وجل - ، ومن هنا فإن الوعي بالجمال وإدراكه وفهمه كفيل بأن يخرجنا مما نحن فيه من قبح يسيطر على حياتنا

اليومية ، ويترتب عليه ما نحن فيه من غلظة في القلوب ، تنعكس على سلوكنا وتعاملاتنا في واقعنا المعاش .

الجمال في اللغة :

نقول : جمل الشيء جملاً : جمعه عن تفرق ، وجمل جمالاً (بفتح الجيم ، وضم الميم ، وفتح اللام) جمالاً أي حسن خلقه ، فهو جميل ، وجمعه جملاً ، ونقول فلانة جميلة أي حسنة الخلق ، وجمعها : جمائل .

وأجل فلان في الطلب أي اتأد واعتدل ، وفي الحديث النبوي الشريف : " إجملوا في الطلب " ، والجملة جماعة كل شيء ، ويقال : أخذ الشيء جملة ، وباعه جملة ، متجمعاً لا متفرقاً .

والجملة عند النحاة هي كل كلام مفيد يشتمل على مسند ومسند إليه ، وجمعها : جمل ، والمجمل من الكلام وغيره هو الموجز ، والجملة هي العاملة بالجميل ، والجامل أي الذي أحسن عشرته .

وجمله أي حسنه وزينه ، وتجميل أي تكلف الحسن والجمال أو اتصف بما يجمل ، واستجمل الشيء عده جميلاً .

ورجل جامل أي : ذو جمال ، والجمال عند المفكرين : صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس الإنسانية الراحة والهدوء والسكينة والإمتاع المعنوي .

وعلم الجمال باب من أبواب الفلسفة يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ، والجمالي من الإبل والناس أي الضخم الأعضاء ، التام الخلق .

وبمراجعة مادة (جمل) في كتب ومعاجم اللغة العربية ، نجد أنها تفيد المعاني الآتية :-

1 - القوة : استجمل البعير ، أي صار جملاً ، وهو جمل إذا أربع أو أجذع ، أو بزل ، أو أثني ، وناقة جمالية أي وثيقة كالجمل .

يقول الشاعر / ربيعة بن مقروم الضبي ، يصف ناقته بالقوة :

كناز البضيع جمالية

إذا ما يقمن تراها كتوما

ومعنى كناز: أي مكتنزة اللحم، والبضيع من الإبل: الذي يحمل بضاعة الحي، وجمالية: أي شحمها مذاب، رشيقة، غير مترهلة، وهو دليل القوة، ومن أسبابها .

2 - العظمة : الجامل في اللغة تعني الحي العظيم .

3 - الحسن والملاحة : والجمال في الخلق والحق ، والجمل (محركة) النجل (لحسن منظره) ، والجمالنة والجميلانة (بضمها) البلبل (لحسن صوته) ، وأجمل الصنعة حسننها وكثرتها .

وفرق البعض بين الحسن والجمال، بأن الحسن يلاحظ فيه لون الوجه، أما الجمال فيلاحظ فيه: صورة الأعضاء، وتناسقها، وانسجام بعضها مع بعض، والملاحة وجود كل ذلك.

4 - الكمال : الجملاء هي الجميلة التامة الحسن من كل حيوان .

5 - التزين : تجمل الرجل ، تكلف الجميل ، وتحسن ، وتزين ، وجمله تجميلاً أي زينه ، ونفس الوضع بالنسبة للمرأة .

6 - الصبر : تجمل الفقير ، أي أنه لم يظهر المسكنة والذل رغم فقره ، ومنه قول الشاعر :

استغن ما أغناك ربك بالغنى

وإذا تصبك خصاصة فتحمل

7 - التآني والاعتدال : أجمل في الطلب ، تآني واعتدل .¹

كانت هذه بعض معاني مادة (جمل) ، وقد رأينا منها : القوة ، والعظمة ، والحسن ،
والتزين ، والتلطف في القول ، والتآني والاعتدال .

معاني تستنبط من البلاغة:

نقول : بلغ الشجر بلوغاً أي حان إدراك ثمره ، وبلغ الغلام أي وصل إلى سن
الحلم ، وبلغ الأمر أي صار إلى غايته .

ونقول : بلغ الشيء أي وصل إليه ، وبلغ بلاغة : فصيح وحسن بيانه ، فهو بليغ ،
وجمعها بلغاء ، وأبلغه الشيء أو أبلغه إليه أي أوصله ، وبالع فيه مبالغة وبلاغة أي اجتهد
فيه ، أو استقصى وغالى في الشيء .

وبلغ الشيب رأسه أي ظهر فيه ، وبلغ الشيء أوصله أو أحاط الناس علماً به ، وبلغ
فلان الشيء أبلغه إياه ، وتبلغ بكذا أي إكتفى به .

والبلاغ هو التبليغ ، وفي القرآن الكريم : { هذا بلاغ للناس } ، وهو ما يتوصل به
إلى الغاية ، أو هو بيان يذع في رسالة أو نحوها .

والبلاغة حسن البيان ، وقوة التأثير ، والبلاغة ما يكفي لسد الحاجة ، والمبلغ المنتهى ،
يقال : بلغ مبلغ فلان ، وبلغ مبلغ الرجال ، والمبلغ هو المقدار من المال .

¹ - في مادة (جمل) يمكن لنا مراجعة: مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، القاهرة، 2000، وكذلك: ابن
منظور الأفرقي، لسان العرب، طبعة بيروتية، بدون تاريخ، وأيضاً: الزبيدي، معجم تاج العروس، القاهرة ،
1960

ويمكن لنا أن نورد هنا بعض المعاني المفادة من مادة البلاغة ، كما وردت في بعض المعاجم اللغوية ، وكتب اللغة :-

1 - الكمال والقوة : البالغ المدرك ، يقال غلام بالغ ، وجارية بالغ وبالغة ، أي مدرك ومدركة ، وبلغ الرجل أي أدرك .

2 - الجودة : شيء بالغ أي جيد .

3 - حسن البيان وقوة التأثير : البلاغة هي حسن البيان ، وقوة التأثير ، وعند علماء البلاغة : علم تدرس فيه وجوه حسن البيان .¹

معاني نستقيها من الفصاحة :

نقول: فصح اللبن فصحاً وفصاحة، أي خلص مما يشوبه، فأخذت عنه رغوته وبقي خالصه، والرجل الفصيح هو الذي ينطلق لسانه بكلام صحيح واضح مبين، ونقول: فصح الأعجمي أي حسنت لغته فلم يلحن ، وهو فصيح وجمعها فصحاء ، ونقول فلانة فصيحة وجمعها فصائح .

وأفصح الصبح أي بدأ ضوءه وظهر ، ويقال : أفصح الأمر أي وضحه ، وكذلك وضح النهار بمعنى خلوه من الغيم ، وأفصح فلان عن مراده أي بينه وخصه .

وتفاح في كلامه أي تكلف الفصاحة ، والفصاحة هي البيان وسلامة الألفاظ من الإبهام والغموض وسوء التأليف .

¹ - نراجع في مادة (بلغ) : الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، القاهرة ، 1970 ، والبستاني ، محيط المحيط ، بيروت ، 1964 ، و مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، القاهرة ، 1989

والفصيح من الأيام الصحو منها أي الذي لا غيم فيه ولا برد ، والرجل الفصيح هو الرجل الذي يحسن البيان والتعبير ، ويميز جيد الكلام من رديئة ، واللسان الفصيح هو اللسان الطلق الذي يعين صاحبه على إجادة التعبير

و يمكن لنا بعد ذلك أن نوجز بعض ما جاء من معاني الفصاحة في كتب اللغة والمعاجم العربية ، وذلك على النحو التالي :-

1 - الخلوص من التعقيد : الفصاحة هي البيان ، وخلوص الكلام من التعقيد ، وقيل : أصلها عن الفصح ، وهو اللبن الذي أخذت رغوته أخذاً من قول الشاعر (وتحت اللبن الرغوة الفصيح) .

2 - الوضوح والبيان : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن ، وأفصح الرجل أي بين وأوضح ، و تكلم بالفصاحة ، وصار بليغاً

3 - الطلاقة : لسان فصيح أي طلق واضح .

4 - الحسن : الكلام الفصيح ما يدرك حسنه بالسمع ، أي باعتبار حسن منطق المتكلم .

5 - الصفاء : أفصح الرجل أي تكلم بالفصاحة ، والفرس صفا سهيله ، والبعر صفا هديره ، ويوم فصيح ومفصح ، أي بلا غيم .¹

وبمراجعة المعاني المشتركة بين الجمال والبلاغة والفصاحة ، نجد تقارباً شديداً في عدد هذه المعاني ، مثل : اتفاقها في الحسن ، والوضوح ، واللفظ في الكلام ، والقوة ، والكمال ، والخلو من التكلف والتعقيد .

¹ - نراجع في مادة (فصح) : معجم محيط المحيط للبستاني ، والمعجم الوجيز ، مرجعان سابقان . كما يمكن لنا مراجعة : حفني محمد شرف ، البلاغة العربية : نشأتها وتطورها ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1973 ، الباب الخاص بالمصطلحات البلاغية وتطورها ، ص 13 وما بعدها

والذي نهدف إليه هو إثبات وجود قرابة قريبة ، ولحمة نسب حميمة بين البلاغة والجمال ،
ترجع إلى أصل المنشأ ، وبداية الاستعمال .¹

أقول لكم :

الأدب فن جميل ، والنقد نظر وتقليب في الأدب ، أساسه التذوق والتمييز والتقويم
مما يؤدي إلى الحكم السليم على ما نطالعه من إبداع ، والنقد مجاله وحقله الإبداع الأدبي ،
ومهمته الارتقاء به درجات عليا سامية في سلم الفن ، وغايته السمو إلى أعلى مراتب الجمال
والإحسان والتجويد ، وعليه فلا ضرر ولا ضرار إذا قلنا أن النقد أو البلاغة من الفنون
الجميلة الراقية ، لا تقل بأي حال من الأحوال عن الإبداع الأدبي .

¹ - للمزيد من الفائدة يمكن أن يراجع القارئ المفضل في جزئيات هذا الفصل : ابن قتيبة ، أدب الكاتب ،
القاهرة ، 1950 - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، القاهرة ، 1947 - أحمد الشايب ، أصول النقد
الأدبي ، القاهرة ، 1946 - ابن القفطي ، إنباء الرواة على أنباء النحاة ، القاهرة ، 1950 - عبد الله بن
المعتر ، البديع ، القاهرة ، 1945 - إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، القاهرة ، 1950 -
أمين الخولي ، البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، القاهرة ، 1944

الفصل الثاني

عندما يكون البحث عن الجمال هدف أهل الفكر وعلماء البلاغة

تمهيد :

مما لا شك فيه أن البحث عن الجمال من أهداف كل من أهل الفكر والبلغاء أي علماء البلاغة ، فلا يمكن لأحد أن ينكر أن فلاسفة اليونان القدماء ومفكرهم قد عنوا بالجمال عناية فائقة ، في نفس الوقت الذي اهتموا بمعرفته اهتماماً عظيماً تجلّى فيما كتبوه ووصل إلينا .

لقد كان الجمال بجانب الخير والحق من أهم ما يشغل فلاسفة ومفكري اليونان ، وإنهم وصلوا إلى درجة عالية من الدرس والبحث في هذا المجال المهم من مجالات الفكر الإنساني التي ثبت لهم فيها السبق والتقدم ، وكان التفوق فيه ميزة من ميزاتهم ، ومنحة منحها الله - سبحانه وتعالى - إياهم ، كما منح غيرهم من الأمم ميزات أو مواهب أخرى .

ولا ضرر ولا ضرار في ذلك فهذه سنة الخالق الأعظم - عز وجل - في خلقه ، فهو له في خلقه شئون ، وقد جعل في العرب البلاغة والفصاحة ، وفي أهل الصين الفنون الجميلة ، كما كان من فضله وعدله أن قسم نعمه التي لا تعد ولا تحصى على خلقه .¹

وفي هذا السياق يقول أستاذنا / مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله) في كتابه (تاريخ آداب العرب) : وكانت البلاغة من أشهر ما عرف به العرب في العلوم والفنون حتى صارت من أرقى مدنياتهم ، وأوسع معارفهم ، فالحكمة الإلهية التي جعلت من قديم مدينة الفنون في أيدي الصينيين ، ومدينة العلوم في رؤوس اليونانيين هي التي خصصت مدينة اللغات في ألسنة العرب .²

لقد تفوق أهل اليونان في هذا المجال من مجالات الفكر ، وهذا أمر معروف ومفهوم ولا مرية فيه عند كل منصف ، ومن المحال أن يقلل ذلك من شأن أية أمة أخرى ، لأن الله - جل علاه - كما قسم الأرزاق على عباده قسم المواهب أيضاً ، وهو العليم بعباده ، فلا جدال في هذه المسألة .

والله - جل شأنه - هو موزع النعم بين الناس جميعاً ، واختص بفضله الأمة العربية فجعلهم أبلغ الناس بياناً ، وأفصحهم لساناً كما وهب أهل اليونان الفكر المنتظم ، فاليونان كانوا أصحاب فكر قديم يتسم بالوعي والدقة ، وقد أخذت الحضارة العربية الإسلامية منه الكثير الذي يتفق مع قيمنا وثوابتنا ، بعد أن قام مفكرو و علماء الحضارة العربية الإسلامية بعمليات النقد والفحص والدرس والتمحيص ثم الإضافة ، فالحضارات أخذ وعطاء ، الحضارات تكامل وتعارف ، الحضارات عطاء إنساني من أجل صالح الإنسانية ، عطاء لا يعرف الصدام أو الصراع ، أو انتصار حضارة على أخرى ، فكل الحضارات سواء في حق الوجود والعطاء .

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، دار الرسالة ، القاهرة ، 1981 ، ص 14

² - مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 217

ومن الموضوعات التي طال حديث أهل اليونان من المفكرين عنها : موضوع الجمال، فبالرغم مما هو معروف من أن الإنسان اليوناني القديم كان يولد فناناً - كما كانوا يقولون - وأن ثقافته كانت تصله بمجال فكري واسع فيما يختص بالأشياء الجميلة ، فإن ظهور النظر الجمالي أو الفكر الجمالي جاء متأخراً بعض الشيء ، ويمكننا أن نجعل من الفيلسوف اليوناني / أفلاطون نقطة البداية ، لأن به - كما يقول تاريخ الفكر الإنساني - تبدأ نظرية الجمال .

ونحن ندرك أن نظرية أفلاطون اليوناني في المثل جعلته يفترض وجود مثال خارجي للجمال ، وعليه تصبح الأشياء في حقيقة جمالها شبيهة بالمثل ، ويقترّب هذا الشبه أو يبعد بمقدار ما فيها من جمال ، والعمل الفني نقل ، ومجال لهذه الأشياء المشبهة بـمثال الجمال ، فهو إذن شبيهه بالشبيه .¹

والجمال الذي يتمثل فيه يقل عنه في الأشياء ، كما أن جمال هذه الأشياء بدورها أقل منه في المثل ، والجمال في المثل جمال مطلق ، أما في الأشياء فهو نسبي .

ولعل ذلك يتضح لنا عندما نقرأ محاوره أفلاطون المسماة (هيباس) ، حيث يرى أن الأشياء ليست جميلة جمالاً مطلقاً ، وإنما تكون جميلة عندما تكون - كما يقول هيباس - في موضعها ، وقبيحة عندما تكون في غير موضعها .²

أما أفلوطين والمدرسة الأفلوطينية الحديثة فإن الجميل عندهم يشير إلى الواحد المطلق ، الواحد الخير ، الذي تصدر عنه الصورة المشعة .

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سابق ، ص 15

² - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، بدون تاريخ ،

ولا ريب أنه من الواضح تأثر هذه النظرية بفلسفة أفلاطون في الجمال ، وإذا كان أفلاطون قد وحد بين الجمال والخير في هذا الرأي ، فإن أفلوطين - كما أوضحنا - تأثر بها ذهب إليه ، فعنده كذلك : أن الجميل هو الخير ، والخير في هذا الرأي كامن خلف الجميل وهو مصدره ، ومبدؤه ، كما هو مصدر كل شيء ومبدؤه ، فالواحد المطلق خير قبل كل شيء ، وهو جميل لأنه خير ، ومن هنا فإن الخير هو المبدأ الأول الذي يصدر عنه الجمال .

وإذا كان للجمال هذه الطبيعة فإن الأداة لإدراكه هي الروح ، أما الحواس فإنها لا تدرك سوى انعكاسات هي ظلال للجمال ، وسوى إحياءات للحقيقة ، وهذه الأداة يجب أن تهذب ، ويجب أن تصقل بالثقافة العالية ، والتفكير الراقى ، وبحياة الألم أي : التجربة التي يمر بها الإنسان أو المبدع ويعبر عنها تعبيراً فنياً صادقاً .¹

وليس أفلوطين وحده هو الذي يتفق مع أفلاطون في مفهوم الجمال ، فنظرية أرسطو في الجمال نجدها تلتقي مع نظرية أفلاطون أيضاً ... فمن الممكن الجمع بين أفلاطون وأرسطو في البحث الجمالي ، لأن نظريتهما في الجمال تشتركان في مبدأين هما :

المبدأ الأول : أن الجمال في النظام والوحدة والتعدد .

المبدأ الثاني : أن الجمال هو الخير .

بين الجمال والخير :

وفي هذا السياق يؤكد (سانت توماس) هذه الصلة فيقول : إن الجمال والخير لا يمكن انفصالهما ، وإذا كان ارتباط الجمال بالخير قوياً إلى هذه الدرجة ، فإن بعض المفكرين ، ولاسيما سقراط ، ربط بين الجمال والنفع ، والربط بين الجميل والنافع معروف منذ قديم الزمان .

¹ - نفس المرجع السابق ، ص 40

فهذا هو (فاكر نوفان) يرى أن كل جميل طيب وفي محاورة (هيباس) يسأل سقراط:
إذن فنحن متفقون على أن الجمال والمنفعة شيء واحد؟! ، فيجيب هيباس : بالتأكيد .!!¹
وإذا أردنا بعد ذلك أن نوجز هذه المجموعة من الأفكار التي طرحناها آنفاً ، فإننا
نجدها تؤكد على أن مصدر الجمال الحق هو الواحد المطلق للخير الذي تصدر عنه الصورة
المشعة ، ونجد أن أهل الفكر قد ربطوا بين الجميل والخير ، وبين الجميل والنافع ، وأن الأداة
الجيدة لإدراك الجمال هي الروح ، أما الحواس فإنها لا تدرك سوى انعكاسات هي ظلال
للجمال ، وهذه الأداة المهمة يجب أن نصقلها بالثقافة الرفيعة ، والخبرة والدربة التي ترتقي
بالذوق .

هل تطرق رجال البلاغة أو النقد الأدبي لبحث هذه الأفكار ؟

والسؤال الذي نرغب في أن نطرحه على مائدة نقاشنا لهذا الموضوع ، وبالتالي نحب
أن نقف أمامه هو : هل تطرق علماء البلاغة أو نقاد الأدب لبحث هذه الأفكار والنظر فيها ،
حتى يمكن لنا القول : إن هناك مشاركة فعالة للكشف عن مفهوم الجمال و مصادره في كل
ما يدركه أو يتناوله الإنسان بعقله وروحه وأحاسيسه بين أهل الفكر والبلغاء أو النقاد ؟

وفي محاولة من جانبنا للإجابة عن هذا السؤال ، فإننا نحاول أن نعرض معاً وجهات
نظر كل من الفريقين حول بعض النقاط التي تعد أساساً في مفهوم كل من الجمال والخير .

ومن ذلك أننا وجدنا كثيراً من أهل الفكر من أمثال : سقراط ، وأفلاطون ،
وأرسطو ، وأفلوطين ، وسانت توماس قد ربطوا بين الجمال والنافع أو الجمال والخير ، وفي
ذات الوقت فإننا نجد كثيراً من علماء البلاغة أو النقد يؤكدون على الصلة الوثيقة بين مفهوم
البلاغة ، وبين الخير والنافع .

¹ - نفس المرجع السابق ، ص ص 88 . 90

ومن هؤلاء العالم الزاهد / عمرو بن عبيد، الذي سأله سائل ذات مرة: ما البلاغة؟، فأجابه: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيك!، قال السائل : ليس هذا أريد !! ، قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير لفظ في حسن إفهام ؟ ، قال : نعم ، قال عمرو : إنك إذا أردت تقرير حجة الله في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على الله جزيل الثواب .¹

وفي رواية أخرى لنفس الشاهد أن (عمرو بن عبيد) عرف البلاغة بقوله : تخبير اللفظ (تخير اللفظ) في حسن الإفهام ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، والمقبولة عند الأذهان .

ويقال أن (عمرو بن عبيد) نصح سائله بألا يطول الكلام ، لأن طول الكلام يدعو إلى التكلف (وبالتالي إلى ملل السامع أو القارئ) .²

وعليه فإن عنصر الخير ومعه النفع - في هذا المقام - أساسيان ضروريان عند شيخنا / عمرو بن عبيد ، في مفهوم البلاغة أو بمعنى آخر : من أجل تحقيق الكلام لهدفه المراد (الإمتاع والإقناع) ، كما هما أساسيان في مفهوم الجمال عند رجال الفكر ، لأنه لا نفع ولا خير أكثر للإنسان العاقل مما يبلغه الجنة ، ويعدل به عن النار ، ويبصره مواقع الفلاح والصلاح التي بها يحدد مواقع رشده في الدنيا وفي الآخرة .

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، طبعة بيروتية ، 1990 ، 1 / 14 . وكذلك : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1969 ، 1 / 94

² - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ، 1 / 97 . 98 ،

أساس البلاغة :

وإذا كان أفلاطون قد وصل بنظريته في الجمال إلى أن هناك مثال للجمال، هو مصدر كل جمال وهو الأصل فيه ، وأن الأشياء تحرز منه ، وتنال بقدر قربها منه أو بعدها عنه .

وإن كان الجميل عند المدرسة الأفلاطونية يشير إلى الواحد المطلق ، الواحد الخير ، الذي تصدر عنه الصور المشعة بالجمال .

فإن جانباً كبيراً من جهود علماء البلاغة العرب (النقاد العرب) والتي بذلوها من أجل استنباط أسسها ، والأصول التي تقوم وتعتمد عليها ، إنما مصدره الأول وأساسه المتين مستقى من كلام - الله جل شأنه - المبين في القرآن الكريم ، فكلامه - سبحانه وتعالى - هو أساس البلاغة ودستورها ، ومصدرها الوثيق ، وجماها منبثق من جمال الأسلوب القرآني البديع الرائع الذي من المحال أن يرتقي إليه أي أسلوب آخر مهما كانت بلاغة صاحبه .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن جانباً كبيراً من جهود علماء البلاغة والنقد موجهة في الأساس إلى إثبات وجود الله - العلي القدير - وقدرته ، وأنه - سبحانه وتعالى - هو المتصف بكل صفات الجلال والجمال والإكرام ، وإنه - عز وجل - مصدر كل خير ونفع ، وهو جميل يحب الجمال .

كل ذلك من خلال تفسير كتاب الله المجيد ، وسنة رسوله الكريم وصفوة خلقه أجمعين محمد بن عبد الله الهادي البشير (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا ما عرفنا أن جماعة من أهل البلاغة والنقد ، وهم المتكلمون أو رجال التوحيد ، كانت غايتهم العظمى هي إثبات كل صفات الكمال للمولى الواحد الأحد ، ودفع كل شبهة نقص عنه جل شأنه .

وأن أهل البلاغة بوجه عام يدركون كل الإدراك أن طريق الإيمان الحق ، لا يمكن أن نبلغه إلا بنبراس يضيء لنا الطريق ، هذا النبراس هو العقل المنصف المرشد ، العقل الذي يعد أعظم نعمة منحها الله للبشر ، ومع العقل الواعي السليم تأتي الروح الطيبة الطاهرة .

إذا علمنا ذلك جيداً ، وفهمناه كل الفهم ، وأدركنا وحدة الطريق والتشابه في الغاية ، والاتفاق في الوسيلة المحققة لذلك ، ووعينا أيضاً أن المفكر المنصف الملتزم والبليغ الأريب المتمكن من أدواته ، كلاهما يبحث عن غاية عظمى ، ومقصد محمود ، وبمعنى آخر لا فكر ولا أدب بدون هدف ، بدون إقناع وإمتاع ، بدون جدوى أو نفع .

ومن هنا كان البليغ الحق في نظر شيخنا / عمرو بن عبيد هو الذي يستطيع تقرير حجة الله - العلي الحكيم - في عقول المكلفين ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بالحكمة والموعظة الحسنة المقتبسة من القرآن المجيد ، وذلك هو النجاح التام الذي يورث صاحب الكلمة الثواب الجزيل من - الله سبحانه وتعالى - ، وذلك خير ونفع لا ريب فيه .

الجاحظ وأحسن الكلام :

وليس الشيخ الزاهد / عمرو بن عبيد وحده هو الذي يربط بين البلاغة والنفع ، وأن طريق ذلك هو حب الله وفيض نعمائه ، بل إن أحد مؤسسي البلاغة العربية وهو المعلمة الخالدة ، والموسوعة الشاملة شيخنا / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، والذي ذكر في كتابه الشهير (البيان والتبيين) مجموعة من التعريفات لوفير من العلماء حاولوا أن يعرفوا بها معنى أو مفهوم البلاغة ، نذكر منها ما نقله الجاحظ : " وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان

صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، و منزهاً عن الاختلال، ومصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة " ¹.

فأحسن الكلام ، والمثال العالي في البلاغة عند الجاحظ ما كان الله عز وجل قد ألبسه من روح الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، وكلما كانت روح القائل تقية ، نقية ، سمحة ، طاهرة ، شريفة ، قريبة من الله تعالى خالقها الأعظم، وكان المعنى هادفاً مفهوماً ، نفع الله الناس بهذا الكلام ، وجعله يحيي موات القلوب ، ويثبت فيها الخير العميم ، ويصنع بها صنع الغيث في التربة الكريمة .

حقاً وصدقاً ، إن الكلمة أمانة ومسئولية ، الكلمة لها دورها في التوعية والإرشاد والتوجيه بالإضافة إلى جمالها الفني الذي يسمو بالنفوس ويرتقي بها مهذباً لغرائز البشر- ، باعداً إياها عن كل خبيث لا يليق بها ، لقد كان شيوخنا (رحمهم الله) عندما ينوون الكتابة ، يقومون للوضوء ، ثم يصلون ركعتين لله تعالى حتى يمكنهم من أن يكتبوا ما ينفع الناس ويفيدهم في دنياهم وأخراهم ، وبالتالي يحقق رضا الله عنهم .

بشر بن المعتمر و إحراز المنفعة :

وفي نفس السياق الذي نحن بصدده ، يقول بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة ، والتي تعد أول وثيقة بلاغية / نقدية في تراثنا العربي الإسلامي ، يقول بشر- : " وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة " ²

¹ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ، 1 / 135 ، وكذلك : أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، طبعة القاهرة / الأستانة ، 1320 هـ ، ص 134

² - أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب المعروف بابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق / حفني شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 246

لقد اعتبر بشر بن المعتمر المنفعة هدفاً أساسياً من أهداف الكلام البليغ الجميل ، كما اعتبرها أهل الفكر هدفاً من أهداف الجمال .

ابن وهب والتام من الكلام :

ويؤكد على ذات الغرض وبنفس الوضوح الناقد والبلاغي / ابن وهب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب) ، صاحب كتاب (البرهان في وجوه البيان) حيث يقول : " وأما التام من الكلام ، ما اجتمعت فيه فضائل هذه الأقسام ، فكان بليغاً صحيحاً ، وجزلاً فصيحاً ، وكان جيداً صواباً ، وحسناً حقاً ، ونافعاً صدقاً " ¹

ونحب أن نشير هنا إلى أن كتاب (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب ، كان في نسبه إلى صاحبه شك ، هل هو لقدامة بن جعفر ، أم لغيره ؟ ، ولكن بعد الدرس والفحص والتمحيص ثبت للكافة أن هذا الكتاب لابن وهب .

ومن المعروف أن أستاذنا الدكتور / طه حسين ذهب إلى أن كتاب البرهان منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، ولكن تأكد بما يقطع أي مجال للشك أن هذا الكتاب لابن وهب ، وقد قام أستاذنا المرحوم الدكتور / حفني شرف بنشر هذا الكتاب ، وبمراجعتة على أصول ، وتحقيقه التحقيق العلمي السليم المفيد ، وعليه فقد أصبح إعادة الكلام في هذه المسألة غير ذي بال ، فكل الأدلة والحجج والبراهين والوثائق أكدت لنا جميعاً أن كتاب البرهان ، صاحبه ابن وهب .

وبهذه المناسبة فإن أستاذنا الدكتور المرحوم / شوقي ضيف يرجح أن مؤلف كتاب : البرهان في وجوه البيان (ابن وهب) ، كان يعيش في أوائل القرن الرابع الهجري ، أي كان معاصراً لقدامة بن جعفر صاحب كتاب : نقد الشعر ، وأكد ذلك بنقل مؤلف البرهان عن

¹ - حفني محمد شرف ، البلاغة العربية : نشأتها وتطورها ، مرجع سبق ذكره ، ص 218

ابن التستري من أنه كان مما يحفلون بالسجع والتقعر في المنطق ، واستعمال الغريب من الألفاظ ، والتستري هذا هو / سعيد بن إبراهيم التستري ، ويقال أنه كان نصرانياً قريب العهد ، ومن صنائع بني الفرات هو وأبوه.¹

ويؤكد ذلك أستاذنا الدكتور المرحوم / عبد الحميد العبادي حيث يوضح لنا أن دولة بني الفرات ازدهرت فيما بين عامي 290 هـ - 327 هـ ، وبهذا يثبت أن مؤلف البرهان عاش في ذلك الوقت .

كما يرجح الدكتور المرحوم / شوقي ضيف بأن مؤلف كتاب البرهان تأثر بالمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية في براهينه وتقاسيمه ، ضارباً لذلك عدة أمثلة.²

البلاغة والكشف عن الحق :

نعود فنقول: إذا كان أفلاطون - فيما نسب إليه - قال: "إن الجمال هو وضاعة الحق"، فإننا نجد من علماء البلاغة من جعل مهمة البلاغة الأولى الكشف عن الحق .

فها هو الأديب المترجم / عبد الله بن المقفع يقول لنا إن البلاغة : "كشف ما غمض من الحق"³

ونفس المبدأ يردده كلثوم بن عمر العتابي، عندما يصف اللسان ، الذي يفوق كل لسان ، إذ يقول : " فإذا أردت اللسان الذي يفوق الألسنة ، ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق "⁴

1 - شوقي ضيف ، البلاغة : تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، 1999 ، ص ص 95 . 97

2 - شوقي ضيف ، نفس المرجع السابق ، ص 99

3 - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سبق ذكره ، 1 / 157

4 - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 47

أي أن الكلمة المعبرة هي تلك التي تكشف لنا ما غمض من الحق ، وبمعنى آخر لا تقول إلا الحق ، فإن الحق أحق دائماً بأن يتبع ، واللسان البليغ الفصيح الذي يفوق كل الألسنة ، هو ذلك اللسان القادر على أن يعبر عن الحقيقة بصدق ووضوح ، كاشفاً بجلاء عن ما غمض من الحق .

مبدأ الوضوح :

وإذا انتقلنا إلى مبدأ الوضوح الذي يعتبر شرطاً أساسياً بل جوهرياً في العمل الفني الجميل عند مفكر كبير مثل (سانت توماس الأكويني) الذي يتطلب في الجمال أمور ثلاثة هي : التكامل أو الكمال ، والتناسب التام ، والوضوح .¹

وها نحن نجد الخليفة الراشد الفاروق / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، يثني على الشاعر العربي / زهير بن أبي سلمى (شاعر الحكمة والسلام) ، ويجعله أشعر الشعراء ، كما يروي لنا ابن عباس (رضي الله عنه) ، حيث قال له عمر : هل تروي لشاعر الشعراء ؟ ! ، قال ابن عباس : ومن هو ؟ ، قال عمر : الذي قال :

وإن حمداً يخلد الناس أخلدوا

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قال ابن عباس : ذاك زهير بن أبي سلمى ، قال عمر : فذاك شاعر الشعراء ، قال ابن عباس : وبم كان شاعر الشعراء ؟ ، قال عمر : لأنه كان يعاظم في الكلام ، وكان وحشي- الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .²

¹ - طه إبراهيم ، تاريخ النقد العربي ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، 1971 ، ص 42

² - الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سبق ذكره ، 1 / 91

فتجنب المعاظلة أي تجنب الكلام الغامض أو المبهم أو العسير على الفهم ، وكذلك تجنب وحشي الكلام أو الكلام السوقي المبتذل الذي لا يحترم القار أو السامع ، كل ذلك أصل الوضوح الذي امتدحه الفاروق م عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في شعر زهير بن أبي سلمى ، نضيف إلى ذلك الصدق والواقعية والبعد عن التهويل والمبالغة والكذب ، وقد كان زهير يلتزم بكل ذلك ، ولذلك كان لا يمدح الرجل بما فيه .

وفي نفس المعنى يقول الأديب المترجم / عبد الله بن المقفع ناصحاً الكتاب في رسالته الشهيرة حيث يقول : وإياكم والتبع لوحشي الكلام (أو حوشي الكلام) ، طمعاً في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي (أو العيب) الأكبر .

ويقول ابن المقفع لأحد الكتاب ناصحاً إياه : عليك بما سهل من الألفاظ ، مع التجنب لألفاظ السفلة .

وذات يوم قيل لابن المقفع : ما البلاغة ؟ ، فقال : هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحس مثلها لسهولتها ووضوحها .¹

الإمتاع عند الأمدي :

وإذا كان الوضوح في الكلام قريناً للمتعة ، ومدخلاً لها ، أو محققاً لها ، وكانت المتعة غاية من غايات الجمال - كما يقول بذلك التجريبيون الذين يفهمون الجمال على أنه إحساس مرض - أو كما يقول (فلف) الذي يطلق لفظ الجميل على الممتع ، والقبيح على غير الممتع.²

فإننا نجد لدينا زيادة على ما أسلفنا من حكم صائب للفاروق / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ومن نصائح قيمة للكتاب من جانب الأديب / عبد الله بن المقفع ، الذي

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 50 . 51

² - نفس المرجع السابق ، ص 52

يهدف إلى الوضوح والإمتاع والإحساس الذي يرضي المتلقي (السامع أو القارئ أو المشاهد) - كما يقول الباحثون عن الجمال - نجد ناقداً بليغاً متمكناً مثل الآمدي (الحسن بن بشر الآمدي) صاحب كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحري)، نجده يحر كل الحرص على أن يكون الشعر الجميل ممتعاً.

يقول الآمدي: " وليس الشعر عند أهل العلم به، إلا حسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى المعتاد في مثله وأن تكون الاستعارة والتمثيلات لا ثقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمضاف، فإن الكلام لا يكتسي- البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف " (1)

عندما يصل المعنى إلى القلب :

فليس وراء حشد كل هذه الشروط إلا الحرص التام على الوضوح والإمتاع، فبدونها لا يكون للعمل الفني أي قيمة، فالإبداع الفني أو الأدبي يجب أن يكون ممتعاً للناس، والشعور بالمتعة ونحن نتذوق أي عمل، لا يمكن أن يتحقق بدون الوضوح.

ومن التعريفات الواضحة في تحقيق هذين المطلبين قول الرماني: " البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ " (2)

وطالما جاء ذكر الرماني، نقول إنه: أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني، النحوي، المتكلم. وهو أحد أئمة المعتزلة المشهورين المعروفين، الذين جمعوا بين علمي الكلام والعربية، والمتوفى سنة 374 هـ.

¹ - الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تحقيق / محمود توفيق، القاهرة، 1944، ص 391

² - الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل)، القاهرة، ص 75

وللرماني رسالة معتيرة أسمها (النكت في إعجاز القرآن) ، والتي أخذنا منها الاقتباس السالف ، وقد طبعت هذه الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، صدرت في القاهرة ، بتحقيق السيد الأستاذ / محمد خلف الله أحمد ، والدكتور/ زغلول سلام .

وإذا كان الرماني قد عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، فإنه يوضح ذلك قائلاً : " فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كأعجاز الشعر للعجم ، فهذا معجز للعجم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة " ¹

ولم يقف أمر شيخنا / الرماني عند بيان أن بلاغة القرآن الكريم في أعلى طبقة ، بل أخذ يبين ذلك بتوضيح أساليب تأدية المعنى وطرقه في القرآن الكريم .

أبو هلال العسكري : بين جمالين أو متعتين :

ومن البدهي أن المعاني لا تصل إلى القلب إلا إذا كانت واضحة وممتعة ، ومع ذلك فالرماني يؤكد على أن تكون في أحسن صورة من اللفظ ليجمع بين جمال اللفظ وجمال المعنى ، أو متعة النفس ومتعة الحس .

والذي يكلمنا في ذلك بحديث واضح سلس ، هو: أبو هلال العسكري ، المتوفى سنة 395 هـ ، حيث نجده مهذباً ، ومبوباً ، ومرتباً ، وملخصاً لكتاب عالمنا الموسوعي / الجاحظ ، كتاب (البيان والتبيين) ، كما نجده عاش في عصر كانت الحرب قائمة على أشدها بين علماء البلاغة ، فريق يناصر جانب انسجام المعاني وإتلافها ، ويرى أن البلاغة في ذلك ، وفريق ثان يناصر جانب سبك الألفاظ وصياغتها ، ويرى أن البلاغة في ذلك ، وفريق ثالث

¹ - نفس المرجع السابق ، ص 69

يناصر الاثنين معاً ، فكان لتلك الحرب الطاحنة أثرها الشديد في أدب أبي هلال العسكري ونقده .

وقبل أن نستطرد نحب أن نؤكد على أن البلاغة الحقيقية ليست في المعاني وحدها ، أو في الألفاظ وحدها ، بل في الاثنين معاً ، نضيف إلى ذلك السهولة والوضوح فهما الطريق إلى الإفهام والإقناع ، ولا ننسى بالطبع الجو النفسي- والوحدة العضوية ومراعاة المسرح اللغوي والتجربة الفنية ، وكل ذلك توسع في دراسته النقد الحديث ، ولم يعد الأمر مقتصرًا على أن البلاغة تكون في الألفاظ أو في المعاني ، بل إن هناك أموراً أخرى يجب أن تؤخذ في الحسبان بالإضافة إلى المعاني والألفاظ .

لقد خاض أبو هلال العسكري غمار تلك الحرب ، وتأثر بقوادها ، فلقارئ المتفحص لكتابه (الصناعتين) يلمس جلياً تأثيره الشديد بالجاحظ ، الذي يميل هو الآخر إلى تفضيل بلاغة صياغة الألفاظ ، ويرى أن البلاغة تكون بها ، ويظهر هذا التأثير في كثير من صفحات كتاب (الصناعتين) لأبي هلال ، فالمادة قد استقاها - في غالب اعتقادي - من الجاحظ ، وإن كان يختلف عنه في البعد عن الاستطراد المخل الذي أخذ على الجاحظ .¹

وإني أرى بعض الباحثين في عصرنا الحديث مثل أستاذنا المرحوم الدكتور / بدوي طبانة في كتابه المهم (أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية) يحكمون على أبي هلال العسكري لتأثره الشديد بالجاحظ وبالذات في مسألة التحيز لناحية اللفظ ، والحق يقال إن أبا هلال كالجاحظ أيضاً لم يتحيز لناحية اللفظ ، وإنما هو مضطر (أو فلنقل كان في حالة من الحيرة والاضطراب) كالجاحظ : أينصر سبك المعنى على صياغة اللفظ ويكون من أصحاب

¹ - بدوي طبانه ، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ، الكتاب مطبوع على نفقة المؤلف ، القاهرة ، 1371

هـ = 1952 م ، ص 18

نظر المعاني ، أم ينصر صياغة اللفظ على سبك المعنى ويكون من أصحاب الألفاظ أم ينصرهما معاً¹

والقارئ لكتاب أبي هلال يلمس ما أسلفناه جلياً واضحاً ، وبالذات من خلال النصوص التي يوردها ... والذي يراه كاتب هذه السطور : أن الفكرة كانت بمهمة في رأس أبي هلال ، أو أن الأمثلة الأدبية التي كان يعرض لها أمثلة مرنة ، فكان الجمال في بعضها يرجع الفضل فيه إلى صياغة الألفاظ ، وتلاؤمها مع المعنى ، وجمال بعضها الآخر يرجع الفضل فيه إلى إئتلاف الألفاظ وحده ، أو إلى إئتلاف المعاني وحده .

ولهذا كانت حيرة أبي هلال العسكري ، وله بعض الحق فيها ، لأن قوانين البلاغة والجمال قوانين مرنة ليست بجامدة ، فقد يطغى جمال الروح على جمال المادة ، وقد يكون العكس ، وكثيراً ما يقع اجتماعها فيكون شبه الكمال ولا نقول الكمال كله لأن الكمال صفة غير بشرية على الإطلاق .

إن العاشق للجمال المولع به يتتبعه أينما كان ، في كل زمان ومكان ، وفي أي صورة يبدو ، وهل هناك صاحب فطرة سوية لا يحب الجمال ولا يعشقه ؟ ، الحياة دون جمال كالصحراء الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء ، الجمال هو الحياة بل هو أصلها وجوهرها الأصيل ، والله عز وجل جميل يحب الجمال .

وحتى لا أطيل عليك - أيها القارئ المفضل - أقرر أن شيخنا / أبا هلال العسكري تناول النقد والبلاغة المتمزجتين في دراسته خلال كتابه (الصناعتين) ، وإننا نحمد له ذلك الحكم الذي حكمه على الأدب بميزان الذوق والفهم الفني ، وعليه فقد أكثر من الشواهد الأدبية ، وقلل من القواعد الجامدة الجافة التي عقدت وقعرت البلاغة العربية الجميلة التي

¹ - أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، مرجع سبق ذكره ، ص 11

أساسها الحس المرهف ، والذوق الرفيع ، فقد بعد أبو هلال عن طريق البلغاء المتأثرين بالفلسفة والمنطق ، ومن هنا استحق أن يشار له بالبنان على جهده المبذول ، وذوقه المرهف في التناول ، رغم أي هنات وقع فيها .

لقد كان أبو هلال واضحاً عندما قال لنا : " البلاغة كل ما يبلغ به المعنى قلب السامع ، ويتمكن فيه ، ولا يكون ذلك ما لم تكن واضحة ممتعة ، وما يزيده وضوحاً أن تكون في صورة مقبولة ، ومعرض حسن "

ويبين لنا أبو هلال العسكري الطريقة التي يمكن بها تحقيق هذه الأهداف ، وذلك في حديثه عن الكلام التام ، إذ يقول : " إن من الأمور التي ترفع قيمة الكلام حتى يبلغ من الجودة ما أورده فيه صاحبه من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها أو عذوبتها وسلامتها ... مع كمال معانيه ، وصفاء ألفاظه " ¹

الوحدة والنظام :

أما مراعاة الوحدة والنظام في الجميل واعتبارهما مصدرين أساسيين فيه كما يفهم من تعريف (سانت أوغسطين) للجمال عموماً ، بأنه الوحدة ، وجمال الجسم ، وبأنه توافق الأجزاء مع جمال اللون . ²

وعبارة أوغسطين هذه في تعريف جمال الجسم بأنه توافق الأجزاء مع جمال اللون ، يذكرنا بما ذكره علماء اللغة العربية في مفهوم الجمال من أن الملاحظة تعم الحسن والجمال .

¹ - بدوي طبانه ، أبو هلال العسكري مقاييسه البلاغية ، مرجع سبق ذكره ، ص 12

² - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص 130

وقالوا : إن الجمال يلاحظ فيه صورة الأعضاء ، وأن الحسن يلاحظ فيه جمال اللون ، فكان مفهوم أوغسطين عن الجمال يطابق مفهوم علماء اللغة العربية عن الملاحه ، وحسبك به من اتفاق يوحد بين وجهة نظر الفريقين (أهل الفكر وعلماء البلاغة) .

ثم يأتي (سانت توماس) ، فيرى أن تحقق الجمال لا يكون إلا بثلاثة أمور (أو يتطلب ثلاثة أمور) : التكامل أو الكمال ، والتناسب التام ، والوضوح .. وكل هذه العناصر نبه عليها علماء البلاغة في مواضع كثيرة ، ووضحوها لنا وضوحاً مبيناً .

فهاهو الراوية اللغوي / المفضل الضبي ، يسأله أحد طلابه عن الإيجاز ، فيجيبه قائلاً : " هو حذف الفصول ، وتقريب الفصول " .

تأمل معي - أيها القارئ العزيز - هذه المقولة التي قد تبدو لنا قليلة الكلمات ، إلا أنها كثيرة الدلالات ، غنية المعاني ، ثرية المضمون : أليس في حذفنا فصول الموضوع وحواشيه وزوائده وحدة للموضوع وتماسك لمعانيه ؟ أليس في تقريب فصوله توافق وتنظيم وترابط للأجزاء ؟ أليس في الجمع بين هذين المبدأين مراعاة للنظام ، وتحقيقاً للوحدة الموضوعية والشعورية / النفسية للعمل الأدبي الذي نقرأه أو نستمع إليه أو نحلله أو ننقده ؟ !

من عناصر الجمال :

ومن التوافق الفكري الجيد في هذا الصياغ أن نجد من بين أهل البلاغة من يورد عناصر الجمال عند أهل الفكر في مفهوم البلاغة .

ومن هؤلاء البلاغي الناقد / ابن وهب ، صاحب كتاب (البرهان في وجوه البيان) ، الذي يقول لنا عن البلاغة : " حد البلاغة عندنا القول المحيط بالمعنى ، المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام " .¹

إن ابن وهب وسانت توماس اتفقا اتفاقاً واضحاً في بعض النقاط : فنجد التكامل أو الكمال يعني تأدية المعنى تأدية سليمة ، أو هو المعنى المفاد من القول المحيط ، أي يجب أن يكون القول المحيط مفيداً أو مؤدياً للمعنى ، فلا إفادة حقيقية بدون إظهار وتوضيح للمعنى .

ولعل هذا ما نجده في تعريف ابن وهب صاحب البرهان للبلاغة أو لحدها ، وكذلك نجد التناسب مفهوماً من حسن النظام ، في نفس الوقت الذي نجد فيه الوضوح عند توماس يقابله فصاحة الكلام عند ابن وهب .

الصدق الفني :

ومن النقاط المشتركة بين الفلاسفة والبلغاء ، والداخلية عند كثير منهم في مفهوم الجمال ، وبلاغة الكلام ، نقطة الصدق أو بلغة النقد المعاصر : الصدق الفني .

فبينما نجد مفكراً كبيراً مثل (شيللر) الألماني يعتبر أن الجمال لا يقوم إلا على الصدق ، ويحاول أن يستبعد تماماً كلمة (الجمال) من قاموس الفن أو فنقل من ميدان الإبداع الفني ، ويقترح علينا أن نستبدل بها كلمة (الصدق) في أكمل معانيها .

ونرى أن هذا المبدأ على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية في مسألة تحديد القيم الجمالية في أي عمل فني ، بل هو أساسه في جما القول ، وهذا ما عبر عنه نقاد العرب القدماء ، عندما قالوا : إن خير الشعر أصدقه .

¹ - ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان، مرجع سبق ذكره ، ص 129

وبالطبع ليس خير الأدب أو الفن أكذبه ، فالكذب لا يصنع الفن الجميل ، والفن الجميل أساسه الصدق ، أي أن الكذب لا يصنع الإبداع الجميل الصادق الذي يل من القلب إلى القلب ، ويعبر عن الإنسان كإنسان في كل زمان ومكان ، وصدق الشاعر العربي القديم إذ يقول :

إن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وقد أسس لهذا المبدأ الخليفة الراشد / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، عندما جعل الصدق أساساً لتفضيل الشاعر العربي / زهير بن أبي سلمى (شاعر الحكمة والسلام) على غيره من الشعراء العرب ، وذلك عندما قال عن زهير: " إنه لا يمدح الرجل بما فيه " !!

التعبير الناجح :

ومن النقاط المهمة والبارزة التي يلتقي عندها ويشترك فيها كل من الفلسفة والبلاغة ، النظر إلى كل منهما على انه التعبير الناجح ، وهو - في رأينا - التعبير الذي يمكن أن يصل على الناس بسهولة ويسر دون غموض أو تعقيد ، وكما علمنا السلف : الذي يخرج من القلب يدخل إلى القلب .

وهذا هو (كروتشه) يعرف الجمال بأنه التعبير الناجح ، لأن التعبير عندما لا يكون ناجحاً فإنه لا يحق لنا أن نطلق عليه (تعبيراً) بأي حال من الأحوال ، فما قيمة أي تعبير عندما يبعد عن الوضوح ، وينزلق إلى هاوية التعقيد والغموض ؟ ، ما قيمة أي تعبير دون

أن يكون معبراً بحق عنما بداخلنا كي يصل إلى الآخرين مباشرة، يصل إليهم ليعرفوا ماذا نقول؟، وبماذا نحس؟، وبماذا نشعر؟¹.

البلاغة هي مراعاة الكلام لمقتضى الحال ، هي الوضوح والسهولة ، هي الوصول إلى قلب القارئ أو السامع مباشرة دون تعقيد أو إبهام ، وهذا ما فهمناه من المصادر اللغوية والأدبية التي تعلمنا منها منذ نعومة أظفارنا حتى شيخوختنا التي نعيشها الآن ، البلاغة هي تبليغ المعنى ، هي توصيله إلى الآخرين في بيان حسن ، وكلام واضح ومفهوم .

لقد نص على ذلك الرماني ، وأبو هلال العسكري في تعريفهما للبلاغة ، وقد سبقهما ولحق بهما عدد كبير من أهل البلاغة أكدوا على ضرورة الوضوح وعدم التعقيد والغموض .

عبد القاهر : النبل والمزية:

والحق يقال أن كثيراً من المعاني التي اشتد حرص أهل الفكر على اعتبارها عناصر أساسية جوهرية في مفهوم الجمال مثل : الوضوح ، الوحدة ، وتحريك القلب (الأحاسيس والمشاعر) ن والسمو بالغرائز ، والارتقاء بالإنسان في كل زمان ومكان ، أضف إلى ذلك الإمتاع الذي لا يمكن أن يستغنى عن الإقناع في أي كلام مفيد .

وفي هذا الصدد يقول شيخنا الناقد الكبير ، والبليغ الجليل / عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) : ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات - البلاغة والفصاحة والبراعة والبيان - وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعته والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية إلى دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتماها فيها له كانت دلالة ، ثم تبرجها في صورة هي : أبهى ، وأبين ، وأزين ، وأأنق ، وأعجب ، وأحق بأن تستولى على

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص 133

هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلب لسان الحامد ،
وتتحقق رغم الحاسد .

ويواصل عبد القاهر كلامه فيقول : ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتي
المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به ... اللفظ الذي
يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزيته .¹

فكلام شيخنا عبد القاهر الجرجاني - كما تلاحظ - احتوى على كثير من الاسس
البلاغية والعناصر الجمالية ، فلننظر له وهو يقول : حسن الدلالة وتماها ، ثم تبرجها في
صورة هي أبهى وأزين وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفوس ، وتنال الحظ الأوفر
من ميل القلوب ...

أعتقد أننا لن نجد أروع من ذلك في تصوير الجمال ، والتعبير عن تأثيره ، ولعل ذلك
يؤكدنا الهدف من بحثنا ألا وهو توضيح كيف يكون البحث عن الجمال من أهداف كل من
أهل الفكر والبلغاء .

خاتمة :

إلى هنا فإننا نجد أن هناك نقاطاً ، بل لا غضاضة إذا قلنا أن هناك الكثير من النقاط
تم فيها الالتقاء والاتفاق بين مضمون الجمال أو معنى الجمال ، ومفهوم البلاغة ، أو فنقل
بين الجمال عند أهل الفكر والجمال عند علماء البلاغة ، إلى الحد الذي يجعلنا نعتقد أن هناك
ترابطاً وثيقاً بين البلاغة والجمال ، وعليه فلا توجد البلاغة إلا حيث يوجد الجمال ، وما خلا
من الجمال فأطلاق كلمة بلاغة عليه أمر محال .

¹ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، 1947 ، ص ص 25 . 26

وهناك مجال آخر نحسب أنه يوثق الصلة بين البحوث الجمالية والبلاغية ، هذا المجال هو قضايا البحث المشتركة بينهما ، والمتشابهة فيهما ، وقد وفقنا الله سبحانه وتعالى في كتابة بحث في هذا الموضوع عنوانه : (من قضايا البحث المشتركة بين الجمال والبلاغة) ، حيث أعدنا كتابته أكثر من مرة مضيفين إليه كل ما وجدناه يثري البحث أو يضيف جديداً للموضوع ، ويفيد القارئ بإذن الله ، الذي نتمنى أن يعود إليه لتعم الفائدة إن شاء الله .

وفي رأينا المتواضع أن هذه القضايا تستحق من أهل البحث في موضوعات الجمال والنقد والبلاغة المزيد من الدراسات والأبحاث والمؤلفات لأهميتها البالغة في مجال الفكر الإنساني بوجه عام ، ومنها تتوسع مدارك ورؤى المثقف والقارئ العادي .

الفصل الثالث

من القضايا المشتركة بين البحوث الجمالية والبلاغية

تمهيد :

من المجالات التي تحسب أنها توثق الصلة بين البحوث الجمالية والبلاغية (أو الأدبية والنقدية) مجال قضايا البحث المشتركة بينهما ، والمتشابهة فيهما ، والتي نحاول أن نورد بعضاً منها في هذه السطور المتواضعة .

ومن بين هذه القضايا قضية الجميل أو البليغ ، وهل يكمن الجمال في المادة المصورة أم في الصياغة والتصوير ؟

العمل الفني والمحاكاة :

قديماً أرجع الفيلسوف اليوناني / أرسطو جمال العمل الفني إلى نجاح المحاكاة ،
بغض النظر عن الشيء المحكي جميلاً كان أم قبيحاً .

وهو يقول في (البوطيقا) : والسبب في أن الناس يستمتعون برؤية الشبه هو أنهم
بتأملهم فيه يجدون أنفسهم يتعلمون ، ويستنبطون الأفكار ، وربما يقولون : آه ، هذا هو
ذلك ، لأنه إذا حدث أنك لم تر الأصل فإن المتعة أن يكون سببها التقليد ، وإنما هي ترجع
إلى الاتفاق أو المرونة ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل .

القبح والجمال :

ويتساءل (بلوتال) : هل من الممكن أن يصير ما هو قبيح في حد ذاته جميلاً في الفن ؟
- فإذا أجبنا بنعم ، فهل يكون العمل موافقاً ومناسباً أصله ؟ - وإذا كان لا ، فكيف يحدث
أننا نعجب بهذه المحاكاة في الحقيقة ؟

إن الشيء القبيح لا يمكن ، كما يرى (بلوتال) أن يصير
جميلاً ، ولكن المحاكاة تثير إعجابنا عندما تكون مطابقة ، فالجمال والمحاكاة الجميلة هما
شيئان مختلفان تمام الاختلاف .¹

تصوير الأشياء :

وهنا ما يزال (بلوتال) مثل أرسطو يتكلم عن استجابة ذهننا لمهارة الفنان وذكائه ،
في حين أنه من المهم أولاً وقبل كل شيء ، أن يكلمنا عن العلاقة بين الفنان ، وأهمية الأشياء
التي يصورها ، أنه كما ينقل إلينا الشيء الجميل ، في نظرنا أن أو كما هو معروف لنا أيضاً ،

¹ - بسيوني عرفة رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 31

والمتعة التي تحصل لنا بسبب مهارة الفنان في نقل القبح في طيها ضمناً : أن ما هو قبيح كل القبح ، ولكنه معجب في الفن ، فيه شيء يستطيع الإدراك أن يفهمه على أنه جميل ، وهذا الإدراك بطبيعة الحال هو إدراك الفنان أولاً ، وإدراك المستمع ثانياً .

وقد عارض (لسنج) في إدخال القبح في ميدان العمل الفني على أساس أن مهارة المحاكاة لا تمنع من قبح الصورة التي تحكي القبيح .

"شعر" يستبعد كلمة "الجمال" !

وحاول "شعر" أن يستبعد كلمة الجمال من ميدان الفن ، وذلك لما تحدثه - من وجهة نظره - من اختلاط في العقول ، فالناس يعجبون مثلاً بتمثال (ابوللو) ، ويعجبون كذلك بتمثال (لاوكون) ، ومحتوى الأول يكفي لأن يجعله جميلاً بعكس الثاني .

وكذلك الشأن في الشعر فليس الجمال إذن في المحتوى ، ولكنه في طريقة العلاج ، ويقترح أن نستبدل - على هذا الأساس - كلمة الصدق في أكمل معانيها بكلمة الجمال .¹

الخلاف إذن في أي الشئتين يكون مصدر الجمال : الصياغة أم المحتوى ؟ ، والاتجاه الغالب هو أن الصياغة والتصوير والفن الرفيع عموماً هو مصدر الجمال والمتعة ، فإذا ما أضيف إلى ذلك جمال المحتوى ازداد الأمر جمالاً على جمال .

الجاحظ بين اللفظ والمعنى :

نفس الشيء نجده في اتجاهات البلغاء والنقاد ، فهذا هو الجاحظ يثور معترضاً على أبي عمرو الشيباني لتفضيله أبياتاً من الشعر ، لأن معناها محكم مع أنها خالية من التصوير الشعري الجميل ، وكان أبو عمرو قد استحسّن قول القائل :

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 56 . 57

لا تحسبن الموت موت البلى

فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا

أفطع من ذاك لذل السؤال .

فعلق الجاحظ عليه بقوله: وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي .

ثم يقول الجاحظ : فإنما الشعر صياغة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير .

فظاهر كلام الجاحظ أن الشعر مقصور على الصياغة والنسيج والتصوير ، وقلنا :
ظاهر الكلام من العبارة ، لأن الجاحظ في نظره الممتدة الواعية يريد من التصوير اللفظ والمعنى معاً ، كما هو معروف لنا في نظرية النظم (أو البنائية) التي تعالج نفس القضية :
المحتوى أم الصياغة ؟

"الآمدي" يفضل التصوير :

والذي يكاد ينطق بمفهوم الفلاسفة في هذه القضية هو : الحسن بن بشر- الآمدي ،
في كتابه : (الموازنة بين أبي تمام والبحري) ، فهو يفضل التصوير الجيد ، فإذا قام التصوير
على معنى لطيف ، أو أدب حسن ، فذلك بما يزيد في بهاء الكلام .

يرى الآمدي أن الشعر عند أهل النقد والأدب والخبراء به ، إلا حسن إبداعه
وصناعته ، و بشرط سهولته ووضوحه ، مما يؤدي إلى فهمه وإدراكه من جانب القارئ
والسامع ، ويكون ذلك أيضاً باختيار الكلام المعبر ، ووضع الألفاظ في مواضعها المناسبة ،

فإن اتفق مع هذا معنى جميل ، أو حكمة صادقة مفيدة ، أو أدب يهذب ويوجه ، فذلك إضافة إلى جلال الكلام وجماله .

يقول الآمدي : إن الشعر ليس عند أهل العلم به إلا حسن التآني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، فإن اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة ، أو أدب حسن ، فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه .¹

عبد القاهر يكشف غموض القضية :

والذي يفصل في هذه القضية ويوضحها تمام الوضوح ، ويكشف عنها كل غموض ، ويزيل عنها كل لبس هو إمام البلاغة / عبد القاهر الجرجاني الذي يضع يد القارئ على مواطن اللبس ، فيميز بين أن يقصد القارئ إلى أن يوازن بين معنى ومعنى ، أو بين صناعة وصناعة .

فإذا كان القصد إلى الموازنة بين المعاني فلا مانع في هذه الحالة من النظر إلى المحتوى (المضمون) أما إذا كان القصد الموازنة بين صناعة وصناعة ، فلا بد في ذلك من النظر إلى الصياغة والتصوير في المقام الأول ، فإذا نظر الناقد - والحالة هذه - إلى المحتوى ، وترك الفن والتصوير ، فإنه يكون قد أخطأ لأنه طلب الشيء من غير موطنه ، ووضع الشيء في غير موضعه .

يقول عبد القاهر : واعلم أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدباً أو حكمة ، وكان غريباً نادراً ، فهو أشرف مما ليس كذلك ، بل عابوه من حيث كان كمن حكم أو قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ، ألا يعتبر في قضيته

¹ - الحسن بن بشر الآمدي ، الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، طبعة محمد صبيح ، القاهرة ، 974 ، ص 211

تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقته ، وألا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل أو متصلاً به اتصاله ما لا ينفك منه ، ومعلوم أن سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالذهب والفضة يصاغ منهما خاتم أو سوار .

ليس الكلام في مجرد معناه :

ويواصل شيخنا / عبد القاهر الجرجاني في كتابه المهم (دلائل الإعجاز) ، حديثه قائلاً : فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ وفي جودة العمل ورداءته ، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل ، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه .

وكما لو أنا فضلنا خاتماً على خاتم بأن تكون فضة هذا أنفس ، لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً (من الشعر) على بيت من أجل معناه ألا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعرٌ وكلام ، وهذا قاطع فاعرفه ، واعلم أنك لست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة ، وكلامٌ جاء عن القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب .¹

الصياغة والتصوير :

ومن هذا الكلام المهم ندرك أن اتجاه علماء البلاغة والنقد الأدبي في تقييم الصنعة الفنية ، هو أن ينظروا إلى الصياغة والتصوير في المقام الأول .

وبذلك لا يمتنع أن ينال الكلام الجيد ، وإعجاب النقاد والبلغاء ، حتى ولو لم يكن متضمناً لمعنى شريف ، أو أدب لطيف ، أو فكر مشهور ، ومن هنا كان إعجاب النقاد

¹ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، مرجع سبق ذكره ، ص 196

بوصف الشاعر الفارس / عنتر بن شداد العبسي للذباب في فعله ، وبخاصة عندما يحك
ذراعاً بذراع ، وذلك في قوله :

جاءت عليه كل عين ثرة

فترك كل قرارة كالدرهم

فترى الذباب بها فليس يبارح

هزجاً كفعل الشارب المترنم

غرداً يحك ذراعه بذراعه

فعل المكب على الزناد والأجزم

فوصف الذباب إذا كان واقفاً ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك
رجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك .

ويعلق شيخنا / الجاحظ على ذلك بقوله : ولم أسمع في هذا المعنى لشعر أرضاه غير
شعر عنتر بن شداد .¹

ليس بالمحتوى وحده يكون الجمال :

فموضوع هذا الشعر الذي نال إعجاب واستحسان شيخنا / أبو بحر عمرو ابن
عثمان الجاحظ (المتوفى 255 هـ) في كتابه القيم (الحيوان) ، كما نال إعجاب غيره من النقاد
والبلغاء ، موضوع هذا الشعر ليس معنى شريفاً ولا حكمة بليغة ، بل ربما كان موضوعاً
قبيحاً تتقرز منه بعض النفوس .

¹ - الجاحظ ، كتاب الحيوان ، طبعة قاهرية ، 1954 ، 6 / 78

ولكنه في التحليل الأخير : غريب ، وطريف ، التقط له الشاعر مشبهاً به من غير واديه ، على حد تعبير شيو خنا من البلغاء القدماء .

وقد دقق الشاعر في تحقيق وجه الشبه بعناية فائقة ، أشار إليها المعلم الأول ، وصاحب العلم الغزير الذي يفيض به على المتأدين في البلاغة والنقد ، ونقصد بذلك الجاحظ ، الذي يقول عن أبيات عنتره : ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك ، فالجمال لا يتوقف على المحتوى الجميل أو المادة الجميلة فقط ، بل قد يكون محتوى الجميل في ذاته قبيحاً ، وكأن الجميل هو ما علق بالقلوب ، وأمتع النفوس ، وإن كان في ظاهره قبيحاً ويصور هذا الاتجاه تصويراً مغللاً قول الشاعر عن قلبه :

.. .. .

ويرحم القبح في هواه

الجمال بين الكل والجزء :

وقضية أخرى عرضت لأذهان الباحثين في علم الجمال ، وفي البلاغة والنقد الأدبي ، ألا وهي قضية : الكل والجزء ، بمعنى : هل من الممكن أن يستقل الجزء - كالكلمة المفردة مثلاً - بالجمال ، أم أن القيمة الجمالية تكمن في الكلي ؟!

لقد ناقش هذه الفكرة الكثير من المفكرين والفلاسفة ، فقديماً قال أرسطو اليوناني : إن النظام والتناسق والتحديد هي الخصائص الجوهرية التي يتألف منها الجمال .

وقد ناقش أفلوطين هذا الرأي ، ورأى أن من الشائع القول أن تناسق الأشياء ، وتناسبها ، يكسبها جمالاً أو على هذا لا يكون الجزء جميلاً ، وإنما يكون الجمال في الكل .¹

وعليه فإن الجمال الذي يعول عليه عند غالبية أهل الفكر والفلسفة ، إنما يكون في الكل لا في الجزء .

المعنى هو الجمال :

نفس الاتجاه نجده عند شيخ البلغاء ، وإمام الفصحاء ، وأستاذ النحويين ، وصاحب نظرية النظم الشهيرة ، شيخنا / عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (المتوفى سنة 471 هـ أو 474 هـ) ، وذلك في كتابه (دلائل الإعجاز) أثناء معالجته لقضية اللفظ والمعنى .

حيث يقول رداً على من ظن أن مصدر الفصاحة هو اللفظ وحده : إن غرضنا من قولنا إن الفصاحة تكون في المعنى ، إن المزية التي من أجلها استخفى اللفظ لوصف بأنه فصيح ، عائدة في الحقيقة إلى معناه ، ولو قيل : إنها تكون فيه (أي في اللفظ) دون معناه ، لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظ إنها فصيحة ، أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال .

ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك فإننا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضوع ، وتراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع .

وليس لهذه اللفظة من الفصاحة قليل ولا كثير ، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح ، مزية تحدث من بعد ألا تكون ، وتظهر في

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص 118

الكلم من بعد أن يدخلها النظم ، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها ، وقد جئت به أفراداً لم ترم فيها نظماً ، ولم تحدث لها تأليفاً ، طلبت المحال .

ثم يتابع عبد القاهر الجرجاني حديثه الشيق إلى أن يقول : وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظه مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه ، ولكننا نوجبها لها موصولة بغيرها ، ومعلقاً معناها ، بمعنى من يليها .¹

بين المحسوسات والمعاني :

ومن النقاط التي اهتمت بها البحوث البلاغية والجمالية، وهي من الوضوح بما كان، هي معرفة ما إذا كانت المتعة والإعجاب بالعمل الفني مصدره المحسوسات أو المعاني - وبمعنى آخر - تدركه الروح والحواس ؟ !

وبعض الباحثين في كلا المجالين يذهب إلى جانب الحس ، بينما الغالبية تميل إلى الجانب الروحي أو المعنوي .

ومن ثم ينتهي (أفلوطين) - كما يقول أستاذنا الدكتور / عز الدين إسماعيل - إلى أن الروح هي مصدر الجمال ، وهي التي تجعل للأشياء ، حتى الأجسام ، الحق في أن تسمى جميلة .

ويقول: إن (هربارت) قد انتهى أيضاً - وليس في ذلك غرابة - إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها أفلوطين أو هي أن عبقرية المؤلف أو المبدع هي التي تبعث الروح والقيمة في العناصر المكونة للجمال .²

¹ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 263 . 264

² - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 118 . 119

الغزالي : القلب أشد إدراكاً من العين :

وفي هذا المعنى يقول الإمام / أبو حامد الغزالي (حجة الإسلام) [ولد سنة 450 هـ أو 451 هـ ، وتوفي سنة 505 هـ] : والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصورة الظاهرة للإبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ .

ويستمر الغزالي في حديثه إلى أن يقول : ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة ، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.¹

الذوق الواعي :

ومن العناصر المهمة في البحوث البلاغية والجمالية ، ولها دخل كبير في تقييم كل من الجمال والبلاغة (الذوق) ، والذوق المعتبر في كلا المجالين هو الذوق الواعي المدرب الذي أنضجته الخبرة مع الدراية ، وعمقته الثقافة الشاملة الواسعة .

وبعيداً عن الخلافات الفكرية فإننا نعني الذوق الذي يدرك الجمال في كل مكان ، ويحس به ، والذي يقول عنه الفيلسوف الألماني / كانط : إن رضاء الذوق عن الجميل ، هو الرضاء الوحيد الصادق الحر ، والذوق هو القدرة على تقدير شيء أو نوع من الفكرة من حيث إرضائها أو عدم إرضائها دون تحقيق غاية .²

¹ - أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، 1969 ، ص54

² - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص 80

بين ابن رشيق والآمدّي :

وابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) يذهب إلى أن الشعر الجميل أو الجيد ليس في قرضه (نظمه وقوله)، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف، والملاحه في الوجه.¹

ويذهب الآمدّي في كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحري) إلى أن من الجيد والرديء ما يمكن بيان علله، والوقوف على أسبابه، ومنه ما لا يمكن بيان أسبابه وعلله، وإنما يعرف بالدربة والتجربة، وطول الملبسة، ويدرك ذلك أهل العلم بالشعر، والبصيرون به.² فالآمدّي يوضح لنا أن الذوق المعتبر هو ذلك الذوق المدرب بالتجربة مما يكسبه الخبرة والدراية، وهذا لا يتأتى إلا بالثقافة الواسعة، وطول الملبسة.

القاضي / الجرجاني : الموقع في القلب :

أما القاضي / عبد العزيز الجرجاني، فيقول: وأنت ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال، ثم نجد دونها، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى على القلب، وأعلق بالنفس، ثم لا تعلم لهذه المزية سبباً، ولو قيل لك: كيف صارت هذه الصورة - وهي مقصورة عن الأولى في الأحكام والصنعة - أحلى وأرشق؟!

ويجب القاضي / الجرجاني، قائلاً: لكان أقصى ما في وسعك أن تقول له: موقعه في القلب ألطف، وهو بالطبع أليق.³

¹ - ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، طبعة تونسية، 1979، 1 / 77

² - الآمدّي، الموازنة بين أبي تمام والبحري، مرجع سبق ذكره، ص 43

³ - القاضي / عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1967، ص 309، وكذلك: بسيوني عرفة رضوان، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء، مرجع سبق ذكره، ص 31. ويجدر بالذكر أن القاضي / الجرجاني، ولد سنة 290 هـ، وتوفي 366 هـ أو 392 هـ.

عبد القاهر : الذوق والأريحية :

ويقول شيخنا / عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) : إن المعول في فهم النص على الذوق ، والإحساس الروحاني (المعنوي) ، وما يعرض في نفس السامع من الأريحية (القبول أو الراحة أو اللذة المعنوية) ، فإن لم يجدها أفليس القول أو الشرح بمغن عنه شيئاً .

كلمة خاتمة :

وختاماً نقول: إن هذا كله صريح وواضح في بيان قيمة الذوق ، وقدرته على التمييز بين الجميل وغير الجميل ، والجيد وغير الجيد في نظر أهل البلاغة ، وأهل الفكر .
وعليه فإن البلاغة العربية حظيت بحظ كبير من دراسة القيم الجمالية ومقاييسها ، ومن واجب أهل البحث والدرس أن يبرزوا هذا الجهد الأصيل ، لنعيد إلى فكرنا العربي جوهره الأصيل .

الفصل الرابع

الجمال عند العرب

تمهيد :

مما لا شك فيه أن البلاغة العربية قد حظيت بحظ وافر من دراسة القيم الجمالية ومقاييسها ، وهذا يستوجب بيان موقف العربي القديم من الجمال وتصوره له .

كما يستدعي الحال في نفس الآن بيان نقطة أخرى ، أو الإجابة عن سؤال يتولد عن هذه النقطة ، وهي : لماذا تأخر العربي في التعبير الفكري عن الجمال ، ولم يظهر له فيه فلسفة مبكرة ؟ ! - وهنا نحاول عبر هذه السطور المتواضعة أن نقدم تصوراً - قدر الطاقة والإمكان - عن تطور إحساس العربي بالجمال .

الجمال للجميع :

نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى قد فطر خلقه جميعاً على الإحساس بالجمال، والميل إليه، والاستمتاع به، ولا فرق في ذلك بين أمة وأخرى.

ولا يمكن لمدع أن يدعي أن هناك من الأمم اختصها المولى جل علاه - دون غيرها - بحب الجمال والإحساس به، وأيضاً لا يستطيع أحد أن يقول: إن الناس جميعاً مستوون في الإحساس بالجمال بدرجة واحدة ولكن الفروق في ذلك موجودة بين الأمم، كما هي بين الأفراد.

ومن بين الأمم التي لها تعلق بالجمال وحب له، الأمة العربية، وتراثنا العربي أكبر دليل على ذلك.

في الجاهلية:

فالعربي القديم حتى في جاهليته (قبل الإسلام) كان محباً للجمال، متغنياً به في منشطه ومكسله، وكثر ذلك في شعره، حتى عرف بالشعر الغنائي ذلك الشعر الذي يعبر عن العواطف والمشاعر، ويصلح للتغني به كما يقول أهل الأدب والنقد.

فلا ريب أن العربي القديم كان يعرف الجمال، ولكنها المعرفة الأولية الفطرية البسيطة التي تتركز على الحس في البداية، ولا تتجاوزه إلا قليلاً، مما يجعلنا نذهب إلى أنها كانت معرفة: سهلة، شفافة، مشرقة، لا غموض فيها ولا تعقيد.

وقد اتجه الإنسان العربي في إحساسه بالجمال، وتعبيره عنه في أول الأمر إلى المرأة، والتي كانت في هذه العصور المتقدمة مأواه ومغناه، فأفرغ عليها كل إحساساته الجمالية، لأنها تمثل عنده أجمل ما في الوجود.

نعم ، لقد أدرك العربي ذلك بسهولة ويسر ، على عادته في تناول الأشياء ، وترك التحليل والتعليل والنظير للآخرين الذين جاءوا بعد ذلك ، من أمثال (هيجل) الذي ذهب إلى أن مسألة الحيوية هي الفاصل عنده في مشكلة الجمال والقبح ، وهو يقيمها على أساس من طبيعة الموجودات .¹

فالجملادات ، وهي أول صور الكائنات يكون جمالها نسبياً عن الكائنات التي تتمتع بلون من الحياة أعظم ، وهي النباتات ، وهذه بدورها يقل جمالها نسبياً عن الحيوانات من حيث هي أكثر حيوية ، ثم يأتي دور الإنسان وهو يتمتع بأكبر قدر ممكن من الحياة ، فيكون بذلك أجمل المخلوقات .

أجمل ما في الوجود :

لقد أدرك العربي ذلك ببدايته السليمة ، فاتجه إلى أجمل ما في الوجود ، وهو الإنسان ، وتحدث عنه ، وعندما اتجه إلى المرأة وتغزل فيها ، بلغ في ذلك أكبر قدر ممكن من البراعة والروعة ، والنفوق الفني .

ثم دقق في إبراز معالم الحسن ، ومواطن الجمال ، وبلغ في ذلك حداً يفوق الوصف ، والخيال .

ومن ذلك ما قاله امرؤ القيس ، عمدة شعراء العصر الجاهلي ، في معلقته الشهيرة ، وما قاله الشاعر الجاهلي / النابغة الذبياني في قصيدته (المتجردة) التي قالها في زوجة النعمان بن المنذر ملك الحيرة (أو نسبت إليه) .

ولو أنك نظرت في مطلع أكثر القصائد الجاهلية ، وبخاصة المعلقات السبع أو العشر ، لوجدت أنها كانت تبدأ بالغزل الذي احتل مكاناً بارزاً في الشعر الجاهلي .

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص 57

وكان طبيعياً أن يظهر هذا الفن لأنه استجابة فطرية في الإنسان ، ولأن العربي ذو حس دقيق يدرك الجمال ، ولأن فراغه الطويل ، وبيئته الحارة ، وإقفار حياته من كثير من وسائل المتعة والترفيه ، وقيامها على الطلاق والفرقة ، كل ذلك يثير بواعث وكوامن شوقه إلى المرأة .

وكان أكثر هذا الغزل ينصرف إلى الأوصاف الحسية ، وقليلاً ما يتجه إلى العواطف ، وخلجات النفوس ، كما كان أكثره عفواً بريئاً ، وقل منها السافر الصريح .¹

ومن يقرأ الغزل في الشعر الجاهلي يجد الكثير منه ينطق بالجمال ، وإن كان - كما ذكرنا - جمال حسي مادي ، يتناسب وطبيعة الإنسان العربي في هذه الفترة .

الإسلام والارتقاء بطبيعة العربي :

ثم يأتي الإسلام الحنيف ويحاول أن يرتقي بطبيعة العربي الحسية ويعلي من شأنها ، وذلك بتوجيه العربي إلى التفكير والتأمل في خلق السموات والأرض ، والنظر في ملكوت الله الصانع الأعظم ، والبحث عن مصادر بديلة للجمال الحسي - المشبع بال رغبات المادية الحسية .

وحس الدين الإسلامي العرب محبباً لهم النظر في جمال الطبيعة ، وقدرة خالقها العظيم ، والسماء وما حملته من نجوم ، والأرض وما عليها من أشجار وزروع وجبال ووهاد وأنهار وبحار .

¹ - محمد أحمد المرشدي مع آخرين ، الأدب والنصوص ، الجزء الأول ، مطابع وزارة التربية والتعليم المصرية ، القاهرة ، 1978 ، ص 79

وحاول القرآن الكريم الذي هو كتاب القيم النبيلة التي أبرزها الحق والخير والعدل والجمال ، حاول أن يرتقي بالذوق الجمالي عند أجدادنا العرب ، فلفتهم كثيراً إلى مظاهر الجمال الظاهرة الواضحة في هذا الكون الفسيح ، فنزل فيهم قوله جل شأنه : { أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ } .¹

وهذه دعوة أخرى لجميع البشر من أجل التأمل في خلق الله العلي العظيم ، ونعمه العديدة التي لا تعد ولا تحصى ، حيث يقول سبحانه وتعالى : { أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعم فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ }²

ويقول جل شأنه : { أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . }³ .
لقد حاول القرآن الكريم إذن أن ينتقل بالإنسان العربي في الشعور والإحساس بالجمال من محيطه الحسي إلى محيط روعي آخر ، وهذه وحدها نقلة لها قيمتها النفسية التي ستؤتي ثمارها ، ولو على المدى البعيد

فلا شك أن الوقوف أمام الطبيعة ، وإدراك جمالها ، واستيعاب أسرارها ، يتطلب وعياً جمالياً ، أرقى من ذلك الذي تمثل عند الشعراء الجاهليين في غزلهم .

الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجهاً للجمال الحق :

كان للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) دور بارز في توجيه الفكر العربي نحو هذه الوجهة ، وصرفه عن الجانب الحسي ، ويبدو ذلك في قوله لعمه العباس عندما سأله : فيم الجمال يا رسول الله ؟ ، فقال له : "الجمال في اللسان ."⁴

1 - سورة الأعراف : الآية 185

2 - سورة يس : الآيات من 71 إلى 73

3 - سورة يس : الآية 77

4 - حديث رواه الدار قطني في سننه عن السيدة /عائشة (رضي الله عنها) ، ويروى مرسلأ

فالرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يلفت نظر العرب إلى منبع ثر من منابع الجمال، ألا وهو اللسان الذي لا يساوي جمال ما يصدر عنه جمال، لأن الكلمة الجميلة الصادقة المعبرة لها من التأثير والإمتاع والإقناع والنفع، ما لا يعلم حدوده إلا الله عز وجل .

فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها :

وهو بذلك يأخذ بيدهم ، ويرشدهم إلى مصدر طيب من مصادر الجمال ، بل هو أفضل من المصادر الأخرى التي اعتادوا عليها وألفوها ، وهي المصادر الحسية التي كانت تضرم في نفوسهم نيران الشهوة المسعورة .

وهو (صلى الله عليه وسلم) يصرفهم عن الماديات والشهوات والحسيات برفق ، وكأننا بالرسول الكريم في الحديث السالف البالغ الإيجاز ، والذي يعد بحق من جوامع الكلم ، يرشد المسلمين والعرب كافة إلى أن تفوقهم ونبوغهم ورقيتهم سيكون في هذا المصدر المهم وهو اللسان ، وينبههم إلى ما يجب أن يعطوه من عناية واهتمام .

وعلى الرغم من هذه التوجيهات الواعية الرشيدة ، فإننا لا ندعي أن الفكر الجمالي عند العرب قد تحول سريعاً إلى تذوق الجانب المعنوي / الروحي في الجمال، والانصراف عن الجانب الحسي ، بل ظل التيار الفكري يميل إلى الجانب الحسي حتى عند بعض المفكرين .

الغزالي : بين الحسي والمعنوي :

فهذا هو حجة الإسلام، الإمام / أبو حامد الغزالي (ولد: سنة 450 هـ أو 451 هـ، وتوفي: سنة 505 هـ) ، يقول عن الحب: فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلذ .

غير أن الغزالي (رحمه الله) لم يقف عند الجانب الحسي-، بل ينطلق بعد ذلك إلى الجانب الروحي، بل ويرفع من شأنه حتى أنه يجعل إدراك الجمال في المعاني الشريفة أتم وأفضل من إدراكه في غيرها.

ويقول في ذلك: والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال العين المدركة بالعقل أعظم من جمال الصورة الظاهرة للإبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ. (1)

ويستمر حجة الإسلام / الغزالي في حديثه عن مصادر الجمال، مؤكداً أنه يكون في غير المحسوسات، قائلاً: فاعلم أن الحسن والجمال موجودان في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة.

ثم ينتهي الغزالي إلى أن الصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما، وأننا ندرك الصورة الظاهرة بالبصر الظاهر، والصورة الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمن حرم البصير الباطنة لا يدركها، ولا يلتذ بها، ولا يحبها ولا يميل إليها.

ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط، وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة. (2)

الجمال والروحانيات:

ويظل هذا الاتجاه الذي يرى أن الجمال غير مقصور على المحسنات، بل يتعداها إلى الروحانيات التي ربما تفوقت على الحسيات في الإمتاع والإسعاد.

¹ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سبق ذكره، 4 / 254 . 255

² - نفس المرجع السابق، 4 / 256 . 257

ويتنقل هذا التصور - الذي نكتفي في بيانه بما أوردناه عن الإمام / الغزالي - إلى المجال الأدبي ، فنجد من يرد أصناف الحسن الأدبي كلها إلى أصل واحد هو : الجمال ، أو إحساسه .

ويقصد بذلك الشعور السار ، الذي يتحقق من النظر في الطبيعة الجميلة الخلابة ، والقصيدة الرائعة ، والمرأة الحسنة ، والخلق الفاضل ، والفكرة السديدة ، والعمل الجيد ، والرأي الصائب ، وهذه كلها تتراءى للناس جميلة ومبهجة وسارة ، يشملها قولهم عن الجمال : "إنه السرور بالأشياء" .

وهكذا ، لم يعد الجمال إذن في نظر العربي مقصوراً على المحسنات أو الحسيات فقط ، بل ترقى وانتقل إلى المعنويات التي تدرك بالروح والقلب معاً ، واتسع للعواطف الأدبية جمعاء ، وأصبح من صميمه الخلق الفاضل ، والفكرة الصائبة ، والقصيدة الرائعة شكلاً ومضموناً ، والطبيعة الجميلة الساحرة ، وكل ما فيه مصدر للسعادة والبهجة ، أو إحساس بالجمال .¹

ابن طباطبا : الجمال ذوق وفهم :

ولم يتوقف هذا الاتجاه عند حدود الفكر الفلسفي أو المجال الأدبي فقط لا غير ، بل أخذ في الثبات والاستقرار ، حتى صار اتجاهاً عاماً يذهب إليه النقد والبلغاء .

فهذا هو (ابن طباطبا العلوي) في كتابه (عيار الشعر) ، يقول : إن عيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب ، فما قبله واصطفاه فهو وافٍ ، وما محه ونفاه فهو ناقص ، والعلة في

¹ - أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، القاهرة ، 1966 ، ص 286

قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه ، ونفيه القبيح منه ، واهتزازه لما يقبله ، وتكرهه لما ينفيه .¹

إن كل حاسة من حواس البدن إنما تقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضارة معها ، فالعين تألف المرأى الحسن ، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل الشم الطيب ، ويتأذى بالمتن الخبيث ، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع والمر ، والأذن تشوق وتسعد للصوت الخفيض الساكن ، وتتأذى بالجهير الهائل ، واليد تنعم باللمس اللين الناعم ، وتتأذى بالخشن المؤذي .

الجمال في العدل والصواب :

ويواصل الناقد والبلاغي / ابن طباطبا العلوي كلامه قائلاً: إن الفهم السليم يتأتى من الكلام الذي أساسه العدل و الصواب والحق ، والجائز المعروف المألوف ، فيتشوف إليه - أي الفهم - ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ له .

فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً مصفى من كدر العي ، مقوماً من الخطأ ، ولحسن سالماً من جور التأنيف ، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً ، اتسعت طرقة ، ولطفت مواجحه ، فقبله الفهم ، وارتاح له ، وأنس به .

وإذا ورد على ضد هذه الصفة ، وكان باطلاً محالاً مجهولاً ، انسدت طرقة ، ونفاه الفهم ، واستوحش عند حسه به ، وصدأ له ، وتأذى به كتأذي سائر الحواس بما يخالفها ،

¹ - ابن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، القاهرة ، ص 6 ، وكذلك عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص 143

وعلة كل حُسن مقبول الاعتدال ، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب ، والنفس تسكن إلى ما وافق هواها ، وتقلق مما يخالفه .¹

وهذا الكلام الذي قمنا باقتباسه ، والذي قال به الناقد البليغ (ابن طباطبا العلوي) ، يستحق منا التأمل والتدبر ، لأنه يؤكد لنا أن الجمال في الأشياء ، والقبح فيها ، قد يدرك بالحواس مثل اليد ، وقد تدرك بالفهم أو الذوق ، كما أن هذه الأشياء قد تكون حسية كاللمس الناعم ، وقد تكون معنوية كالعدل الصواب الحق من الكلام .

الحكم للجانب المعنوي :

ويتنقل بنا النقد الأدبي نقلة أخرى إلى الأمام ، وبالتحديد يكون اللقاء مع القاضي / عبد العزيز الجرجاني ، الذي يبين لنا أن الشكل أو الأشكال أحياناً لا تكون هي المقصودة بالحكم أو المؤثرة فيه ، بل يكون الحكم في ذلك هو الجانب الروحي أو المعنوي الذي تعرفه ولا تلمسه ، والذي يكون مصدر الحكم فيه هو الذوق والإعجاب الداخلي في الغالب ، وإن كان ذلك الحكم عند غالبية النقاد لا يقبل من ناقد مدرب ، وحكم مثقف .²

الشكل وحده لا يكفي :

في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه) يقول القاضي / عبد العزيز الجرجاني : وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكلام ، وتذهب في الأنفس كل مذهب ، وتقف من التمام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن ، والتمام الحلقة ، وتناصف الأجزاء ، وتقابل الأقسام ، وهي أحظى بالحلاوة ، وأدنى إلى القبول ، وأعلق بالنفس ، وأسرع ممازجة للقلب .

¹ - ابن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 7 . 8

² - القاضي / عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، مرجع سبق ذكره ، ص 305

ثم لا تعلم - وإن قاسيت واعتبرت ونظرت وفكرت - لهذه المزايا سببا ، ولما خصت به مقتضيا ، ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة ، وهي مقصورة عن الأول في الأحكام والصنعة ، وفيما يجمع أوصاف الكمال ، ويتنظم أسباب الاختيار أحلى وأرشق ، وأحظى وأوقع ، لأقمت السائل مقام المتعنت المتجائف ، ورددته رد المستبهم الجاهل ، ولكان أقصى ما في وسعك ، وغاية ما عندك أن تقول : موقعه في القلب ألطف ، وهو بالطبع أليق .

ولم تعد مع هذه الحالة معارضا يقول لك : فما عبت من هذه الأخرى ؟ ، وأي وجه عدل بك عنها ؟ ، ألم يجتمع لها كيت وكيت ؟ ، وتتكامل لها ذيه وذيه ؟ ، وهل للطاعن إليها طريق ؟ ، وهل فيها لغامز مغمز ؟ ، بما حجك بظاهر تحسه النواظر ، وأنت تميله على باطن تحصله الضمائر ...¹

الخبرة الموضوعية :

القاضي / الجرجاني إذن ومن سار على دربه من النقد والبلغاء لا يعول على الجانب الشكلي أو الحسي للأشياء تعويلاً تاماً عند الحكم عليه ، وإن كانت هذه القضية ذات أبعاد عميقة لا نريد الغوص وراءها الآن لأنها ليست من مهام هذه السطور المتواضعة ، بل هي تتصل بالذاتية والموضوعية في إصدار الأحكام النقدية ، وهل المقصود من الذاتية ، الذاتية الشخصية التي هي وليدة الإحساس الشخصي المتقطع ؟ ، أم هي وليدة الذاتية الفردية التي يبدي فيها الفرد رأيه بناء على معرفة بأصول الفن الأدبي أو الفن بوجه عام ، واتجاهات الممارسين له ، والعاملين في مضماره ؟ .

¹ - نفس المرجع السابق ، ص ص 41 . 42

وبذلك يكون الحكم الأدبي السليم مشبعاً بالخبرة القائمة على الأصول الفنية التي تقرب بين الأحكام القائمة على الذوق السليم ، التي هي في الواقع لا تتناسى الشكل تناسياً تاماً ، بل تدخله في حسابها .

هذه القضية : قضية الذاتية والموضوعية ، لها أبعاد فلسفية عميقة ، ولكننا نقول فقط إن حكماً كالذي عرض على القاضي / عبد العزيز الجرجاني قائم على الذوق المقدر للجانب المعنوي .

عبد القاهر : الفكر والذوق معاً :

ونلتقي بالشيخ الجليل / عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، شيخ البلغاء ، وإمام الفصحاء ، وأستاذ النحويين،¹ الذي وافاه زمانه في وقت احتدم فيه الجدل حول نظريات شغلت فكره ، واحتلت من قلبه مكاناً عظيماً ، ألا وهي : نظرية البلاغة ، وهل هي لفظ وحده أو المعاني وحدها ؟ أو للمعاني والألفاظ مجتمعة ؟ ، أضف إلى ذلك أن الفلسفة وكتبها قد أخذت قسطاً وفيراً من عناية أهل الفكر والأدب في عصر عبد القاهر .

نقول : إن عبد القاهر في كتابه المهم (دلائل الإعجاز) الذي نادى فيه بنظرية النظم (ما يسميه البعض الآن بالبنوية) ، فإنه بذلك يكون قد نحى بالحكم الجمالي إلى الجانب الروحي (الذوق) والمضمون ، وقلل من تسلط الشكل الذي يمثله اللفظ المفرد الخالي من الروح ، ولذلك فإنه يعول على الفكر والذوق في إدراك النظم ، والحكم عليه .

يقول عبد القاهر في ذلك الموضوع : إن هذا النظم الذي يتواضعه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجل صنعه يستعان عليها بالفكرة .²

¹ - توفي عبد القاهر الجرجاني سنة 471 هـ أو 474 هـ

² - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، مرجع سبق ذكره ، ص 41 وما بعدها

الحواس تدرك الجميل :

إن مفهوم الجمال عند الشعراء ، وعند الباحثين في الجمال ، وعند المفكرين ، وعند النقاد العرب ، غالباً ما يكون إدراك حسي ، فالحواس هي التي تدرك الجمال في الجميل .

وهناك الجمال المعنوي الذي يدرك بالبصيرة ، ولكن لما كان العمل الأدبي في الواقع عملاً محسناً ، فقد انصرفت الأغلبية إلى الاهتمام بالجمال الشكلي الذي يتأدي إلى الحواس فيلذها أو يؤذيها ، وكأن قصارى العمل الأدبي الناجح أن يحدث اللذة ، وقد أمكن ضبط القواعد التي تتحكم في الشكل ، فأصبحت هي قواعد الصنعة ، والذين اهتم بالصنعة مثل الأمدي صاحب كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحري) ، أو بالحرية كالقاضي / عبد العزيز الجرجاني ، أو الفكرة كإمام نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني ، لم يخرجوا من قيود الصنعة ، لكنهم أضافوا إليها ما يدرك بالبصيرة ، فخففوا من وطأة هذه القيود ، وبعثوا في تلك القواعد شيئاً من الروح .¹

العرب والوعي الجمالي :

وهكذا نتوصل سوياً إلى أن العرب كان لهم إحساس واضح بالجمال ، غير أن هذا الجمال الذي بدأ حسياً عندهم أخذ في التعمق ، وفي الاتساع حتى عم المعنويات وصار من أفضل وسائله الروح والتذوق.² وبذلك يكون الجمال عند العرب قد وصل إلى ما وصل إليه عند غيرهم من الأمم الأخرى .

¹ - عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 169 . 170

² - بسيوني عرفة رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 44 وما بعدها

الفصل الخامس

الكلمة عند العرب :

فن الفنون وأم المواهب

تمهيد :

نعم ، كانت الكلمة عند العربي دائماً وأبداً هي فن الفنون ، وأم المواهب ، فلا يفوت كل من ينظر إلى الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وكذلك الفنون العربية الجميلة على مر العصور ، لا يفوته أن يدرك بجلاء ووضوح أن أهم ما نبغ فيه العرب من بين ما أتقنوه وعرفوه من فنون وآداب ومعارف ، هو فن الكلمة وآدابها ، وظلوا على ذلك حتى تفوقوا على غيرهم من أبناء الأمم الأخرى ، وصاروا بحق مضرب الأمثال في البلاغة التي نالوا فيه قصب السبق في الوقت الذي تفوق فيه غيرهم عليهم في مجالات أخرى .¹

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 62

فمما لا شك فيه أن بلاغة العرب كانت أشهر ما عرفوا به في العلوم والفنون والآداب ، حتى صارت من أرقى مدنياتهم ، وأوسع معارفهم ، وهذه حكمة الله العلي القدير ، فالحكمة التي جعلت من قديم مدنية الفنون في أيدي الصينيين ، ومدنية العلوم في رءوس اليونانيين هي التي خصصت مدنية اللغات في السنة العرب .¹

وإذا كان الله تعالى قد أعطى لكل أمة موهبة خاصة بها ، في نفس الآن الذي خلقنا فيه شعوباً وقبائل من أجل أن نتعارف ، من أجل أن نتبادل الآراء والأفكار والخبرات والتجارب والعلوم والمعارف والإمكانات والمنافع ، بهدف الوصول إلى واقع أفضل لنا ولذوينا جميعاً ، واقع ملؤه العدل والحق والخير والحب والتعاون والجمال .

تفوق ورعاية :

ومن أجل وصول العرب إلى ما وصلوا إليه من التفوق الباهر في آداب اللغة العربية الأم وعلومها ، فإنهم منحوها من الرعاية والعناية والاهتمام ما لم يحصل عليه غيرها من الآداب والفنون والمعارف عندهم ، وما لم يمنحها غيرهم من الأهمية ، وربما كان اتجاههم إلى فن الكلمة بدون غيره لأنها كانت أقرب الفنون التي توافق طبيعتهم ، وتناسب بيئتهم قبل الإسلام .

ولذلك : فقد فتن العرب باللغة العربية أيما افتتان ، إذا استطاعت أن تملأ كل جانب من جوانب حياتهم المعاشة ، فاستغنوا بفن الكلمة عن سائر الفنون الجميلة ، إذ كانت أخف محملاً ، وأكثر طواعية ، يجدونها في الظعن والإقامة ، وفي البدو والحاضرة ، وفي المنشط والمكسل ، يشتغل بها الفرد دون أن يحتاج إلى غيره ، أو يجلس إلى من يشاركه .²

¹ - مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص 217

² - عبد الكريم الخطيب ، إعجاز القرآن ، القاهرة ، 1970 ، ص 96

ولما كانت الكلمة الطيبة البناءة الصادقة الفاعلة تنسجم مع طبيعة الإنسان العربي ، وتستجيب له كل الاستجابة إلى هذا الحد ، فإنه انشغل بها عن غيرها ، ومنحها أقصى-اهتماماته ، ويظهر ذلك واضحاً في تتبعهم لمفردات اللغة العربية ومشتقاتها ، والمستعمل منها والمهمّل .

عقري اسمه الزبيدي وأستاذه الخليل :

ويتضح لنا مدى حرصهم على جمال الكلمة وعنايتهم الكبيرة بها من أن المستعمل المسموح بتداوله لا يتجاوز كلمة واحدة من بين كل مائتي كلمة ، فقد حصر العالم اللغوي / أبو بكر الزبيدي الأندلسي في كتابه (معجمه) / مختصر العين ، عدة أبنية للكلام وما أهمل منه ، وما استعمل صحيحاً ، فذكر أن عدة مستعمل الكلام ومهمله يبلغ 6.759.400 ، المستعمل منها لا يتجاوز : 5.620 فقط لا غير ، والباقي مهمّل ، فلم يستعملوه لا في الصحيح ولا في المعتل .

وبالطبع فإن هذا الإحصاء الدقيق الذي قام به شيخنا / الزبيدي الأندلسي لم يعتمد فيه على (الكمبيوتر) وعلى برامج الإحصائية التي تتقدم كل يوم في عصرنا الراهن ، ولكنه اعتمد على طريقة العد أو الإحصاء العادية ، مما يجعلنا نقول إن العلماء العرب كانوا أصحاب جهد كبير رائع ومتفرد ، ودائماً يستحقون منا كل التحية والتقدير في مواجهة العولمة البغيضة التي تريد لنا التفكك والذوبان لتقضي على هويتنا وذاتيتنا.

وقريب من هذا ما توصل إليه عالم اللغة والعروض الشهير / الخليل بن أحمد الفراهيدي ، فقد روى العلامة / جلال الدين السيوطي أن الخليل بن أحمد ذكر في كتاب أو

معجم (العين) الذي ألفه عدد الكلمات التي يمكن أن تتكون من ثمانية وعشرين حرفاً ، فوجدها تزيد على إثني عشر مليوناً من الكلمات .

ولكن أبا بكر الزبيدي الأندلسي حين اختصر كتاب أو معجم (العين) للخليل ذكر أن عدد الكلمات الممكنة عقلاً لا تكاد تتجاوز ستة ملايين ونصف المليون ، وإن كان المستعمل منها فعلاً لا يكاد يزيد على ستة آلاف كلمة .¹

والخليل بن أحمد علم من أعلام لغتنا العربية الجميلة ، فهو إلى جانب وضعه لعلم العروض (موسيقا الشعر) هو صاحب أول معجم في اللغة العربية ، ونعني به (معجم العين) وهذا اللغوي الكبير المشهور ، والمشهود له بالذكاء والموسوعية ، لو تصفحنا الكتب التي ترجمت له نجدها تجمع على أن اسمه : الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي البصري ، أبو عبد الرحمن ، صاحب العربية والعروض .

قال السيرفي : كان غاية في استخراج وسائل النحو ، وتصحيح القياس فيه ، وهو أول من استخراج العروض ، وحصر أشعار العرب بها ، وعمل أول كتاب (العين) المشهور المعروف ، الذي يتهياً به ضبط اللغة ، كما أنه كان من الزهاد في الدنيا ، والمنقطعين إلى الله تعالى .

ويجمع الذين كتبوا عن الخليل بن أحمد أنه كانت له معرفة واسعة بالإيقاع والنظم ، وهو الذي أحدث علم العروض ، وكان آية في العلم والذكاء ، لدرجة أن الناس كانوا يقولون : لم يكن في العربية بعد الصحابة (رضوان الله عليهم) أذكى من الخليل ، وكان يحج سنة ويغزو سنة - كما يذكر لنا الزبيدي والسيوطي .

¹ - إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970 ، ص 22 . وكذلك : مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص 22 وما بعدها .

ومن أساتذة الخليل الذين ذكرتهم كتب التراجم : أبو عمرو بن العلاء ، وأيوب
السختياني البصري ، وعاصم الأحول ... وغيرهم ... ، ومن أشهر تلاميذه : سيبويه
النحوي المعروف ، والنضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي ، والليث بن المظفر وغيرهم¹
حكاية العين :

وبالنسبة لمعجم (العين) فقد أنكر عدد من العلماء نسبه إلى الخليل ، ونسبوه إلى
الليث بن نصر بن سيار ، ومال لهذا الرأي الأزهري صاحب معجم (تهذيب اللغة) ، وابن
فارس صاحب معجم (المجمل) و معجم (المقاييس) ، وأبو علي القالي صاحب معجم
(البارع) ، وكتاب : (الأمالي) الشهير ، وكذلك الإمام / النووي .

ومن العلماء من قال : أن الخليل عمل قطعة من أوله ، وأكمّله بعد ذلك الليث بن
نصر بن سيار ، وقال بهذا الرأي السيرفي وابن نباته .

وفريق آخر يرى : أن الخليل رتب أبواب معجمه (العين) وفقاً لمخارج الحروف من
الجهاز الصوتي للإنسان ، ثم توفي قبل أن يحشوه ، ومن الذين قالوا بهذا الرأي : ثعلب ،
وأبو بكر الزبيدي الأندلسي صاحب معجم (مختصر العين) .

وفريق يقول لنا : أن الخليل أشار بعمله ولم يقم به بنفسه ، وقال بهذا الرأي : أبو علي
الفارسي ، وتلميذه ابن جني .

¹ - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت ، 1991 ، .
الفصل الخاص بمعجم العين ، هذا ، وقد كان لصاحب هذه السطور الشرف بالكتابة المطولة عن الخليل بن
أحمد ومعجمه (العين) ، وذلك في كتابي المتواضع (معجم المعاجم العربية) ، وباعتراف العديد من الباحثين
وأهل اللغة والنقد فإن هذا الكتاب قد سد فراغاً في المكتبة العربية بالنسبة لتاريخ المعاجم العربية ، وتم طبعه حتى
كتابة هذه السطور 16 طبعه -- فليعد إليه من أراد لتعم الفائدة بإذن الله تعالى .

أما الرأي الأرجح عندنا فهو : أن الخليل بن أحمد صنع هذا المعجم بنفسه ، ويؤيد هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته ، وجلال الدين السيوطي ، وابن دريد صاحب الجمهرة ، والمستشرق الألماني / بروكلمان .

ولابد أن نذكر هنا بكل التقدير والاحترام الجهد الرائع والتميز الذي بذله أستاذنا المرحوم الدكتور / عبد الله درويش ، الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، و هو من أوائل الذين درسوا تاريخ المعاجم العربية ، حيث قام بتحقيق ودراسة معجم (العين) للخليل بن أحمد، فجزاه الله خيراً في مستقره الأخير عن سعيه وجهده لخدمة العلم والمعرفة.

زبيدي وزبيدي :

أما بالنسبة للزبيدي الأندلسي صاحب معجم (مختصر العين) فهو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن بشر الإشبيلي نزيل قرطبة الأندلسي ، وبالطبع الزبيدي الأندلسي- غير الإمام اللغوي / محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى- الحسيني الواسطي الزبيدي اليمني المتوفى عام 1205 هـ بمصر- ، وهو صاحب معجم (تاج العروس من جواهر القاموس) الذي شرح فيه معجم القاموس المحيط للفيروز أبادي ، هادفاً إلى شرح ما غمض من عبارات القاموس ، موضحاً ما غاب عن أذهان الناس من معانيه ، لذا فقد كان يريد في كتابه (تاج العروس) أن يحقق القاموس تحقيقاً علمياً ، شارحاً إياه ، بعد أن اختلف فيه الشارحون والمعتضون ¹ .

ويجدر بالذكر أن المؤرخ / عبد الرحمن الجبرتي ، كتب فصلاً مهماً عن الزبيدي ، وذلك خلال كتابه : (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) وقد عرض لحياته ومؤلفاته وجهوده عرضاً طيباً مفيداً .

¹ - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، المرجع السابق ، الفصل الخاص بالحديث عن معجم تاج العروس للزبيدي

أعود بك إلى الزبيدي العالم اللغوي وصاحب كتاب (مختصر العين) ، وتقول كتب التراجم عنه : إنه كان أوحده عصره في علم النحو ، وحفظ اللغة ، كما أنه كان أخبر أهل زمانه بالإعراب و المعاني والنوادر ، إلى جانب علمه الواسع بالسير والأخبار ، ولم يكن ببلاد الأندلس في فنه مثله في زمانه ، والزبيدي ينتسب إلى قبيلة زبيد ، وهي قبيلة كبيرة ببلاد اليمن .

وللزبيدي الأندلسي كتب كثيرة تدل على وفور علمه منها : معجم (مختصر العين) ، وكتاب (طبقات النحويين واللغويين بالشرق والأندلس) ، وهو كتاب معروف ومشهور استفاد ومازال يستفيد منه أهل اللغة والأدب ، وكتاب (لحن العامة) ، وكتاب (الأبنية في النحو) ، وكتاب (الواهم في العربية) ... وكلها كتب قيمة تدل على الجهد العلمي الكبير الذي بذله هذا الرجل وغيره من علماء اللغة العربية في خدمة أصولها وفروعها وعلومها .

وقد اتصل الزبيدي الأندلسي - بالحكام في عصره - فقد اختاره الحكم المستنصر - الأندلسي لتأديب ولده وولي عهده هشام بن المستنصر ، ولم يكن الزبيدي لغوياً فقط ، فقد كان شاعراً مجيداً ، غزير الشعر ، قوي الصياغة .

وقد اخذ الزبيدي الأدب واللغة عن أبي علي القالي عندما دخل الأندلس ، كما أخذ عن قاسم بن إصبع ، وسعيد بن فحلون ، وأحمد بن سعيد بن حزم ، وكانت وفاته سنة 379 هـ في إشبيلية ، عن عمر يناهز (63) سنة.¹

¹ - ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ، 1943 ، 18 / 171 . وكذلك : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1989 ، 4 / 7 . وأيضاً : عبد الله درويش ، المعاجم العربية ، القاهرة ، 1971 ، ص 39 . كما يمكن مراجعة : يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، مرجع سبق ذكره ، الفصل الخاص بكتاب مختصر العين للزبيدي

ونحب أن نشير هنا باختصار شديد إلى أهم خصائص معجم (مختصر- العين) للزبيدي الأندلسي : فقد سار مع منهج معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، فكان صورة مصغرة له توافق اسمه ، كما أنه اختصر وحذف وأضاف القليل ، وهو معجم سهل التناول والبحث ، وليس فيه تعقيد معجم العين للخليل الذي رتبته وفقاً للمخارج الصوتية للحروف ، كما أن الزبيدي وضع في مختصره بعض المواد اللغوية في مواضعها السليمة التي أهملها الخليل أو أخفق فيها.¹

لعلك تتذكر معي ما قاله الزبيدي الأندلسي من أن عدد الكلمات الممكنة عقلاً لا تكاد تتجاوز ستة ملايين ونصف المليون كلمة ، إن كان المستعمل منها فعلاً لا يكاد يزيد على ستة آلاف كلمة ، وهذا الكلام من صاحب مختصر- العين يجعلنا نبحت معاً عن سر الوقوف عند هذه النسبة الضئيلة ، فإننا نجد أن العرب القدماء لم يستعملوا الكلمة إلا بعد أن أجروا عليها اختبارات متعددة ومتنوعة من أجل أن يجتبروا سلامتها وفصاحتها .

وعندما تجتاز الكلمة هذه الاختبارات بنجاح ومهارة ، نالت شرف ثقة النقاد وأهل اللغة ، وبالتالي نالت شرف الحياة على ألسنة العرب ، في كلامهم وأحاديثهم وإبداعهم ، أما إذا بدا في الكلمة العجز أهملت ، وأضحت خارج نطاق الخدمة .

إبن جني رجل يهب نفسه للعربية :

ولم تقف عناية العرب بالكلمة عند حد الاطمئنان على سلامتها ، بل أمعنوا في تهذيبها وصقلها وتحسينها حتى تزداد فصاحة ودقة في الوفاء بالمعنى .

¹ - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، نفس المرجع السابق ، الفصل الخاص بمعجم العين العين للخليل والمعاجم التي التزمت بمادته

وها هو ابن جني يقول لنا : فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وأرهفوها فلا
ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا بالمعاني .¹

وابن جني من العلماء الذين وهبوا أنفسهم لخدمة اللغة العربية الجميلة باذلاً في ذلك
الجهد السديد ، مظهر الفكر الرشيد ، وهو صاحب كتاب (الخصائص) وكتاب (سر
صناعة الإعراب) ، وهما كتابان مهمان في مجال الدراسات اللغوية بوجه عام ، ويجب أن
يطلع عليهما كل محب ، وكل مهتم باللغة العربية الجميلة .

ونذكر هنا أن دار الكتب المصرية بالقاهرة قامت بطبع كتاب (الخصائص) لابن
جني طبعتين ، الطبعة الأولى صدرت عام 1913 م ، وتضمنت الجزء الأول من الكتاب فقط
لا غير ، ثم أعيد طبع الكتاب كاملاً عام 1952 م ، بتحقيق الأستاذ / محمد على النجار ،
ويقع الكتاب في أجزاء ثلاثة ، وقام الأستاذ المحقق بعمل مقدمة طويلة جداً تبلغ قرابة
سبعين صفحة ، استعرض فيها حياة ابن جني ، وأساتذته ، وعلمه ، وكتبه التي ألفها ،
وهذه المقدمة - بدون شك - مهمة ومفيدة لكل من أراد أن يكتب عن ابن جني ، أو يدرس
حياته ولكن الأستاذ / النجار استعرض في خمس صفحات فقط لا غير كتاب
(الخصائص) !! ، دون أن يصف لنا الكتاب وصفاً علمياً ، أي أنه لم يذكر للقارئ أو المطلع
ميزات الكتاب أو موضوعه أو الأفكار التي احتواها ...

وكتاب الخصائص اسمه (الخصائص العربية) وقد أهده ابن جني إلى السيد /
المنصور المؤيد بهاء الدولة امتد حكمه من عام 379 هـ - 403 هـ .

ويبدو أن ابن جني عانى كثيراً في تأليف هذا الكتاب ، وأنه كان مهتماً بموضوعاته
اهتماً كبيراً خاصة مسألة (القياس) كما يتضح لنا من بداية الجزء الأول .

¹ - ابن جني ، كتاب الخصائص ، تحقيق / محمد على النجار ، دار الكتب المصرية ، 1952 ، 2 / 56

وكتاب (الخصائص) يشتمل على موضوعات مختلفة ، ففيه أبواب نحوية وصرفية وصوتية ، وأبواب تدخل في البحث العام لعلم اللغة ، وأبواب تخرج من البحث اللغوي الحديث ، وبجانب ذلك يشتمل على بابين في البلاغة وأبواب أخرى .¹

أقول لك: إن ابن جني هو الفتح عثمان بن جني، وكان أبوه يونانياً مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي، وتوفي ابن جني عام 392 هـ، عن حوالي سبعين سنة.

وصحب ابن جني أبا علي الفارسي أستاذه حوالي أربعين سنة، وأخذ عنه علوم اللغة، كما أخذ عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش النحو والصرف.

وكما ترى فإن ابن جني يوناني الأصل، عاش في البيئة العربية الإسلامية واندمج فيها تمام الاندماج (وبالطبع وجد غير ابن جني كثيرون) ، بل أنه صار عالماً مبرزاً من علماء اللغة العربية الأجلاء المشهود لهم بالجهد والثقة ، أي أن الإسلام الحنيف كان بابه مفتوحاً للجميع ، يؤمن بالتعددية الثقافية والفكرية ، في نفس الوقت الذي يحترم الآخر ويقبل الحوار معه، ويتعارف معه متبادلاً الآراء والأفكار والخبرات من أجل حياة أفضل للجميع.

لقد توثقت الصلة بين التلميذ ابن جني والأستاذ / أبي علي الفارسي (الحسن بن أحمد بن عبد الغفار) ، وقد حفظ ابن جني الفضل لأستاذه الذي علمه الكثير ، لذلك نجده يذكره بكل خير في كل مؤلفاته .

ويقال أن سبب صحبة ابن جني لأبي علي الفارسي : هو أن ابن جني كان يدرس اللغة العربية في جامع الموصل بالعراق وهو شاب ، فمر به أبو علي فوجده يتكلم في مسألة قلب الواو ألفاً (في نحو : قام وقال ...) فاعترض عليه أبو علي حيث أنه وجد ابن جني

¹ - محمود جاد الرب ، محاضرات في المعاجم العربية وبعض المراجع اللغوية القديمة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1971 / 1972 ، عرضه لكتابي : الخصائص ، و سر صناعة الإعراب لابن جني

مقصراً في بعض أمور اللغة ، فنبهه بالحسنى إلى ما وقع فيه من أخطاء ، مرشداً إياه إلى الصواب ، ثم داعبه بقوله : لقد تزيت قبل أن تتحصرم !!

ومن يومها تبع ابن جني الفارسي حتى نبغ نبوغاً كبيراً بسبب ما تعلمه على يد أستاذه أبو علي الفارسي .

والكلام عن ابن جني أو غيره من علماء اللغة العربية يفتح شهية أي باحث ، فقد كان لهم الباع الأجل في خدمة الكلمة العربية ، والنهوض بعلومها وفنونها المختلفة ، رغم عدم توافر الإمكانيات البحثية في زمنهم ، رغم ذلك فقد أخرجوا لنا روائع نعجز نحن أهل عصر الكمبيوتر وثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات والانفجار المعرفي عن الإتيان بمثلها ، ولنعترف دون ادعاء أو مكابرة أننا مازلنا تلاميذ صغار أمام أعمالهم المتميزة .

ابن جني كنحوي بصري كان يميل ككل أساتذته إلى القياس ، ويروى عن أبي علي الفارسي أنه قال : لأن أخطئ في خمسين مسألة مما أصله الرواية أحب إلي من أن أخطئ في واحدة قياسية .. !

كما نجد أن ابن جني يرجع علم أستاذه وفضله إلى نبوغه في القياس ، حيث يقول :
ولله هو وعليه رحمته ، فما كان أقوى قياسه ! ، وأشد هذا العلم اللطيف أنسه ! ، فكأنما كان مخلوقاً له ، وكيف يكون كذلك ، وقد أقام على هذه الطريقة مع حلبة أصحابها ، وأعيان شيوخها سبعين سنة.¹

لقد كان ابن جني مولعاً بالقياس والعلل ، ويظهر ذلك واضحاً في كل كتبه التي ألفها ، وفي كل المسائل التي تكلم فيها من نحو وصرف وأصوات ... إلخ ... ، ولهذا كان حنفي المذهب ، معتزلياً ... وكل الذي يهمننا خدمته للغة العربية الجميلة وللعلم ، ونحن لا

¹ - ابن جني ، الخصائص ، مرجع سبق ذكره ، 1 / 276

نشق عن قلب أحد لنعرف عقيدته أو فكره ، والله تعالى أعلم بالنفوس والسرائر ، ولسان حالنا دائماً يقول : أرونا حسن أخلاقكم ، والله تعالى أعلم بسرائركم .

ولعلك مازلت متذكراً معي إن ابن جني كان والده يونانياً ، ولعل هذا دليل واضح على عالمية الحضارة العربية الإسلامية ، وأنها ترحب بالرأي والرأي الآخر ، وتحترم التعددية الثقافية والفكرية ، وترفض تماماً العنصرية ، وتسوي بين الجميع في الحقوق والواجبات .

ونلاحظ أن ابن جني يمتاز في كتاباته بطابع الاستقصاء والغوص في التفاصيل، والتعمق في التحليل ، حتى يكاد القارئ المتابع أن ينسى القضية الأولى أو المسألة التي بسببها قيلت كل هذه التفاصيل ثم الإجابة عليها ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، أنظر معي على سبيل المثال الجزء الأول من كتابه (سر صناعة الإعراب) ، عندما يتكلم عن سبق الحرف الحركة أو بالعكس.¹

وكذلك نلاحظ هذا الاستطراد أو فلنقل هذا الاستقصاء الذي يغوص ويتعمق في التفاصيل والتحليل عندما نقرأ كتابه (الخصائص) ، حيث نجد ذلك في مواضع كثيرة.²

لقد تميز ابن جني باستنباطه المبادئ والأصول من الجزئيات ، ويمكننا القول بأنه جمع جزئيات أهل اللغة من قبل ، ووضع لها الأصول والمبادئ التي تضمها وتجمعها ، وكمثال لذلك فقد أخذ فكرة الاشتقاق الأكبر من أستاذه / أبي علي الفارسي ، وحاول أن يقعد ويبين مناسبة بعض المعاني لبعض الأصوات ، مهما قلبت هذه الأصول .

¹ - ابن جني ، الخصائص ، المرجع السابق ، 1 / 36

² - المعروف لنا أن كتاب (سر صناعة الإعراب) لابن جني والذي يتحدث فيه عن أصوات اللغة العربية أو حروفها ، يمكن لنا أن نصنفه ككتاب في علم الأصوات ، وقد تم طبع الجزء الأول منه سنة 1954 م في القاهرة بتحقيق الأساتذة الأجلاء : مصطفى السقا ، و محمد الزفزاف ، و إبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين .

وأيضاً من ميزاته استكمال الدراسات الصوتية ، والمعروف أن هذه الدراسات بدأت عند شيخنا / الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي رتب معجمه (العين) ترتيباً صوتياً / مخرجياً، والذي وصف فيه مخارج الأصوات من الجهاز الصوتي للإنسان وصفاً دقيقاً إلى حد ما، كما نجدها عند تلميذه النحوي / سيوييه، ثم جاء ابن جني ليكمل هذه الدراسات الصوتية، وخصص لها كتابه (سر صناعة الإعراب)، وأبواباً كثيرة من كتابه (الخصائص).

ويمكن لنا القول أنه في كتاب (الخصائص) تفشت ظهرت القياس والعلل داخل أبواب الكتاب، وقد اعترف ابن جني بذلك صراحة .

لقد أولع الرجل بفكرة ربط المعاني ببعض الأصوات الخاصة، فربط المعنى بجذر لغوي واحد، ولا يتغير المعنى مهما حدث من تقلب للجذر.

لقد بالغ ابن جني وكثيراً ما كان ليتكلف من أجل أن يبرهن على نظريته في الاشتقاق الأكبر ، ووجد أن أصل المعنى لا يتغير في الاشتقاق الأصغر ، فحاول متكلفاً متصنعاً أن يطبق ذلك على الاشتقاق الأكبر .

وقد قدم ابن جني لنا تعريفاً للاشتقاق الصغر الذي هو شائع في اللغة ، والأكبر الذي هو قليل فيها ، مؤكداً على أن فائدة الاشتقاق الأكبر هو إثراء اللغة العربية بصيغ جديدة .

ولا أكتفك سرّاً إذا قلت لك : إن هذا الرجل يستحق منا أن نكتب عنه الكثير والكثير، وبالذات في ميزاته كعالم لغوي، وقد كتبنا بالفعل عنه وعن غيره من علماء العربية، ولكن من ذا الذي ينشر أو من ذا الذي يهتم بمثل هذه الأبحاث أو الدراسات؟!، فنحن نعيش بكل أسف وألم زمن التفاهة والتسطيح !!

التمحيص والصقل والترقيق :

أعود بك فأقول : إن عناية العرب بألفاظهم اللغوية تستمر وتستمر ، وعليه يلجئون إلى تمحيص الألفاظ وصقلها ، وترقيق حواشيها ، وتسهيل حروفها ، فلا غرابة ولا استغراب أن تبلغ منهم الدقة في صياغة الألفاظ ، أنهم كانوا يديرون الكلمة في أفواههم عدة مرات ، ويختبرون وقعها على الآذان ، ولا يفرغون منها إلا إذا رضوا عنها .¹

ولعل هذا يشبه إلى حد كبير العناية بالصناعات الدقيقة وقياساتها في عصرنا الراهن ، فصناعة الكلام في هذه اللغة مبنية على أسباب لسانية دقيقة من عذوبة المنطق ، ومراعاة النسب اللفظية بين الظروف ، وقد دعاهم ذلك إلى تحمل كل ذلك ، ميل العرب فطرة عما يلزم كلامه الجفاء ، وإلى ما يلين حواشيه ويرققها ...²

ويبدو لنا أن أمر العرب مع لغتهم لم يتوقف عند العناية أو الاهتمام ، بل أنه جاوزه إلى درجة النبوغ في اشتقاق المعنى من اللفظ دون العلم به .

ويقال أن أحد رجال المعتزلة أراد توضيح أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ، فكان يقول انه يعرف مناسبة جميع الألفاظ لمعانيها ، وفي رأينا أن هذه المسألة تحتاج إلى ذكر آراء وأفكار علماء اللغة من الأجداد العظماء ، ووضعها على المحكات العلمية لعلم اللغة الحديث ، وبهذا الشكل نخرج برؤية جديدة تثري مجالات البحث اللغوي .

وتبدو عناية العرب التامة ودقتهم المتناهية في إتقان فن الكلمة عندما نجدهم يدققون في مواءمة اللفظ للمعنى ، وقياسه به قياساً دقيقاً بحيث يساعد على الدلالة عليه ، ويستطيع بدقة ، ومن ذلك اختيارهم لكل لفظ هيئة تدل على معنى معين فيه ، فإذا تغيرت الهيئة تغير المعنى .

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 62

² - بسيوني عرفه رضوان ، تعابير الجمال البلاغي ، القاهرة ، 1979 ، ص 310

وقد تنبه لذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه ن حيث قال الخليل : كأنهم تفهموا في صوت الجندب استطالة ، فقالوا في التعبير عنه (صر) ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : (صرصر) .

وذهب سيبويه إلى أن : المصادر التي تجيء على وزن فعلان ، تكون معبرة عن الاضطراب والحركة ...

الثعالبي براعة لغوية أو الفراء النابغة :

وهكذا حرص الأجداد العرب على تصوير المعاني للألفاظ التي توحى بها حتى كأن الألفاظ قوالب فنية بديعة التركيب، شديدة الروعة، ملهمة بها، ومن أجل الأمثلة على ذلك ما أورده الثعالبي في كتابه المهم : (فقه اللغة) من قوله : إذا خرج الميكروب أو المريض فهو الزئين، فإن أخفاه فهو الهنين، فإن أظهره فخرج خافياً فهو الحنين، فإن زاد فهو الأنين...

والثعالبي هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، وكان الثعالبي مبرزاً في الشعر والأدب عامة من بلاغة وغيرها، كما كان بارعاً في اللغة والنحو ، ويجمع النقاد على أن كتبه كانت ذائعة الشهرة بحيث طبقت في المشارق والمغارب، وسمي بالثعالبي لأنه كان فراءً.¹

وللثعالبي كتب كثيرة أشهرها : (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) وهو أكبر كتبه وأحسنها ، كما ألف كتاب (فقه اللغة) ، وكتاب (سحر البلاغة) ... وغيرها من الكتب المفيدة.²

¹ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مرجع سبق ذكره ، 2 / 350

² - وقد قام كاتب هذه السطور بكتابة دراسة تحت عنوان (الثعالبي : فراء يهوى التاريخ !) ضمنها كتابه (معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري) ، والصادر عن دار الكتب العلمية في بيروت ، سنة 1991 م ، وفي الدراسة كشف عن جانب مهم يكشف عنه لأول مرة في شخصية الثعالبي العلمية ، ونعني بهذا الجانب : كونه مؤرخاً بعد أن عرفناه لغوياً وأديباً (فصل : فراء يهوى التاريخ)

وفي الواقع أن كتاب (فقه اللغة) للثعالبي يضم في قسمه الأول معجماً لغوياً معنوياً صغيراً ، لذلك يمكن اعتباره من أوائل الذين وضعوا المعاجم المعنوية .¹

و كتاب (فقه اللغة) طبع في القاهرة سنة 1318 هـ ، وهو يقع في مجلد واحد ، في 260 صفحة ، وعدد فصوله 656 فصلاً ، وقد أهداه إلى أبي الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي ، الذي كان مضيفاً للثعالبي في فيروز آباد ، ويلاحظ أن معظم كتب الثعالبي التي نعرفها قام بإهدائها إلى حكام وقادة ، ولعل ذلك يؤكد علاقته الطيبة بالسلطة على أيامه .

نعود بك فنقول : هكذا نجد الوحدة العضوية تقابلها الوحدة اللغوية عند العرب ، وكلما طرأ تغير عن المعنى بالقوة أو بالضعف قابله تغير في اللفظ ، فجاء بحرف يصور هذا التعبير قوة أو ضعفاً ، فكأنما اللفظ جهاز حساس يصور لنا المعنى في غاية الدقة .

وتبلغ دقة العرب في تطبيق هذه النظرية غايتها عندما نجدهم يقبلون على تشويه صورة اللفظ إذا كان هذا التشويه يساعد على المعنى المراد إدراكه .

وفي ذلك يقول ابن فارس العالم اللغوي الشهير : إنه سمع من يثق به يقول : إن العرب يشوه صورة اللفظ وتقبحها لمقابلة مثل ذلك كقولهم للبعيد ما بين الطرفين ، المفرط الطول (طرماح) ، وإنما أصله من الطرح ، وهو البعيد ، لكنه لما أفرط طوله سمي (طرماحاً) ، ومثل ذلك كثير في أبواب الصفات .²

التفرغ للإتقان :

هذا ، وقد بدأ العرب في الاهتمام بلغتهم والانشغال بها عن غيرها ، بل يمكن القول إنهم تفرغوا لإتقان دقائقها ، ومعرفة أسرارها ، نضيف إلى ذلك ما نراه في تتبعهم لمعاني

¹ - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الخاص بالمعاجم المعنوية ، ضمن الحديث عن تطور المعاجم العربية بوجه عام .

² - مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص 173

اللغة ، واستغراقها ، وترتيبها في درجات ومراحل ، واختيارهم لكل درجة من درجات المعنى لفظاً مناسباً .

فالعرب لم يدعوا معنى من المعاني الطبيعية التي تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية إلا رتبوا أجزائه ، وأبانوا عن صفاته بألفاظ تعين تلك الأجزاء والصفات على مقاديرها .¹

فأول معاني الحياة الروحية الحب الطاهر ، الحب النقي العفيف ، وهذه مراتبه عندهم : الهوى ثم العلاقة ، وهي الحب اللازم للقلب ، ثم الكلف ، وهي شدة الحب ، ثم العشق ، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب ، ثم الشغف ، وهو إحراق الحب لقلب مع لذة يجدها ..

وكذلك اللوعة واللاعج ، فإن تلك هي حرقه الهوى ، وهذا هو الهوى المحرق ، ثم الشغف وهو الهوى الباطن ... ثم التبتل وهو أن يسقمه الهوى ، ثم التدله أو التدلية ، وهو ذهاب العقل من الهوى ، ثم الهيوم ، وهو أن يذهب على وجهه ، ولا يستقر وذلك غلبة الهوى عليه ...²

صاحب المخصص موهبة فريدة :

فإذا أضفنا إلى ذلك ما أورده العالم اللغوي / ابن سيده الضرير في كتابه (المخصص) من أسماء وصفات الإبل ، استغرق ذكرها 176 صفحة من القطع الكبير ، عدا ما ذكره هذا العالم العبقرى من متفرقات في مواضع أخرى .³

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 67

² - مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص 232

³ - أحمد أمين ، فجر الإسلام ، طبعة مشروع مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1999 ،

مما سبق ندرك أنه مما لا مجال للشك فيه أن لغة العرب سيطرت عليهم كل السيطرة ، وامتلكت عليهم زمام أنفسهم ، فلم يعودوا يستطيعون عنها انصرافاً ، ولا إلى غيرها اختلافاً .

لقد امتلكت اللغة العرب بحق ، فكانت هي مغناهم ، هي مسلاهم ، هي منحتهم ، هي مرسمهم ، فيها موسيقاهم ، وعلى مقاطعها توقيعاتهم ، وبها عبروا على آمالهم وأحلامهم وآلامهم ، بها عبروا عن ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .

وبذلك أغتنتهم اللغة العربية الشاعرة عن التفكير في كثير من الفنون ، كما شغلتهم عن الالتفات إلى الفلسفات الأخرى ، وكان لهم في إتقان لغتهم الجميلة والنبوغ فيها ، وإتباع نظرياتها ، وإتقان فلسفتها ، وما أودعوه في بطون مؤلفاتهم من التعيد لها ، وذكر آدابها ، والتغني بجملها ، كل ذلك امتص الرغبة في التفكير النظري المجرد والجمال الحسي- المادي ، وأدى إلى تأخير ظهور الفلسفة الجمالية عند العرب .

نعم ، إنه لم يكن من الطبيعي أن ينبغ العرب في فنون لغتهم وآدابها ، ثم ينبغوا أو يتفوقوا بنفس القدر ، وعلى نفس المستوى في مجال آخر هو مجال الفلسفة الفكرية ، وبخاصة في الجانب الجمالي منها مع ما لها من خصائص عقلية معقدة .

ولا ننس في هذا السياق أن هناك عاملاً مهماً في توجيه المجموعات البشرية إلى مجالات النبوغ والتفوق ، ألا وهو عامل البيئة المعاشة بكل ظروفها ، فالبيئة المتاحة بالقارة الأوربية (مثلاً) بها فيها من برودة شديدة وجليد وغيام وضباب وظلام ، كل ذلك قد يبعث على التفكير والخيال مما يبعث على الحركة والانتقال ... وهذا كلام غالبية الباحثين والمفكرين .

أما البيئة التي وجد فيها العرب فتختلف عن ذلك ، لأنهم كانوا في مناطق يغلب عليها الجذب والقحط ، ويقل فيها الماء ، فيضطرون دائماً إلى الحل والترحال والتنقل بحثاً عن الكأ والماء .

أثر البيئة :

وقد يأتي من يرد علينا معارضاً لما قلناه من أن البيئة لها أكبر الأثر في طبيعة الإنسان وسماته الفكرية ، وفي الواقع أن هذا الكلام ليس كلامنا بالكلية ، بل شاركنا فيه الكثير من أهل الفكر والنظر ، ورغم ذلك فنحن نرى أن التفكير والخيال من صنع الإنسان ، وليس من صنع البيئة أو المناخ الذي يعيش فيه الإنسان والحركة والانتقال بحثاً عن ظروف حياتية أفضل سلوك بشري يقوم به كل ذي لب سليم ، ومن المحال أن يعطل قدرات الإنسان الفكرية والإبداعية .¹

أقول لكم : إننا نحترم الرأي الذي يعارض تأثير البيئة الكبير على الإنسان ، ولكن في نفس الوقت لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتجاهل أو نغفل دور البيئة في حياة الإنسان المعاشة ، وكذلك دورها في سلوكه وتصرفاته وتفكيره ككل .

إني الواقع أن البيئة الصحراوية الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء في أغلبها ، بكل عاداتها وتقاليدها ، وما بها من مشكلات بسبب الاختلاف على الماء والمرعى ، وحيازتها والاقتتال عليها ، وما يترتب على ذلك من حروب طاحنة ، وثورات تشغل القوم بالإعداد لها ، وتشجيع كل فريق على شدة الانتقام من الآخر ، ثم تسجيل ذلك في أيام العرب ووقائعهم

¹ - يسري عبد الغني عبد الله ، دراسات في أدبي الجاهلية وصدر الإسلام ، القاهرة ، 2012 ، ص 14 وما بعدها

عبر الشعر الذي كان هو سجل العرب اليومي ، حيث اعتبر الشاعر هو المتحدث الرسمي باسم القبيلة العربية ، وهو معها في الحل والترحال ، في الحرب والسلام .¹

لقد كان لكثرة التنقل والارتحال في البيئة العربية جانب آخر هو جانب الهوى أي الحب العفيف الشريف الذي ملأ نفوس الشباب العرب، ومال بقلوبهم على إثر لقاء عاجل، أو إقامة متأنية قد تتحول إلى ترحال في أي لحظة ، هنا يرى الشاب فتاة أو خيالها ، وقد يعجب بها ، ثم يفاجأ برحيل أهلها وهي معهم بالطبع ، فتتوهج أشواقه ، وتستعر نيران الحب في قلبه، فلا يجد لهواه متصرفاً إلا في الغزل، حيث يقف أمام الأطلال، ويبكي الديار، ويتذكر المحبوبة الطاعنة ، ثم يتمدح الشاعر بمجده ، وقوة أهله ، وشجاعتهم وكرمهم، وكأنه يريد أن يعرف المحبوبة بنفسه ، أو يعاتبها على رحيلها فجأة .

وهكذا نجد العربي دائماً مشغولاً متوتراً متغنياً بحبه وحربه لا يفرغ منها إلا ليدخل فيها مرة أخرى ، وهكذا تفوقت عاطفة الإنسان العربي وطغى وجدانه ولم يجد متصرفاً لما يحيش بداخله أو بخاطره ، إلا لغته الأم ، لغته الشاعرة الرقيقة التي أتقن التعبير بها عن خوالج نفسه ، ومكنون فؤاده ، فأودعها أفراحه وأتراحه ، سعيداً بذلك كل السعادة .

وأحب هنا أن أعرض إلى عامل آخر أعتقد أن له دخلاً كبيراً في انصراف العربي عن التفكير المبكر في النظريات الجمالية وفلسفتها ، هذا العامل هو : انكشاف الجو ، وجمال الطبيعة ، واتساع الرقعة ، لا حدود ، لا سدود ، لا قيود ، لا غيوم ، لا ضباب ، لا ظلام .. كل شيء واضح ، ظاهر ، صريح .. فالعربي يتنقل في أي وقت يريد ، وبأي طريقة يريد ، وإلى أي مكان يريد ..²

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 62

² - يسري عبد الغني عبد الله ، دراسات في أدبي الجاهلية وصدر الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ص 20 .

يفعل ذلك وهو منشغل كل الانشغال بمظاهر الجمال القريبة الواضحة ، الصر-يحة
الظاهرة ، والمحسوسة لديه ، لكثرتها وتفوقها ، عن البحث فيما وراءها، شغلته السماء
بزرقتها الصافية ، ونجومها المضيئة اللامعة ، وقمرها الجميل الساطع ، وشمسها المشرقة
الدافئة ، وسحبها المتنقلة ، وأمطارها المعشبة .

شغلته الأرض الرحبة بما فيها من أشجار وأزهار ، وما عليها من عشب كثيف
ونبات مورق لطيف ، شغلته الجبال والوهاد ، والفيافي والرياض ، شغلته وجود البید ،
والطيور والصید .

وفي رأينا الخاص أن كل هذا سخره الله سبحانه وتعالى للعربي لأمر أراده ، ولحكمة
علمها ، ألا وهي أن يتفوق العرب في هذا الميدان ، ميدان الكلمة التي كانت عند العرب هي
فن الفنون ، وأم المواهب .

ثم تأتي الرسالة المحمدية الغراء من السماء ، رسالة تعلن للبشر- أجمعين : الحب
والخير ، والتسامح والتعاون ، واحترام الآخر ، والعدل والحق والخير والجمال ... تأتي
بمعجزة من جنس ما تفوق فيه العرب ، ألا وهي معجزة القرآن الكريم ، وتلك حكمة الله
البالغة ، الله العلي القدير ، مع سائر رسله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وقد كانت الصورة
النهائية للتفوق والجمال عند العرب هي الشعر ، وهذا موضوع آخر يستحق البحث
والدراسة بإذن الله تعالى .

الفصل السادس

الإبداع الشعري هو الصورة النهائية للجمال عند العرب

تمهيد :

لقد نالت اللغة العربية من العرب جُلَّ اهتماماتهم ، وجندوا من أجل إجادتها ، وإتقانها ، ودراستها ، كل مواهبهم ، فأودعوها كل أسرار الجمال ، وقامت عندهم مقام كل ما عرف من فنون الجمال الأخرى .

لقد استطاع العرب أن يحملوا لغتهم العربية الجميلة كل ما تحمل الفنون الجميلة من ملهفات وأسرار .

فالموسيقى بألوانها ، وأنغامها ، ومقاماتها ، قد حواها الشعر العربي في تفاعيله ، وبحوره ، وقوافيه والتصوير قد تكفل به البيان العربي في براعة ودقة ، تجعل من الصور الكلامية صورة جلية واضحة مؤثرة .

والنحت قد تضمنته البلاغة العربية (بعيداً عن التعقيدات التي لحقت بها في العصور المتأخرة) ، فأقامت من الكلمات أشكالاً ماثلة ، جميلة معبرة بكل أصباغها وألوانها .

والتمثيل له في الكلمة مكانة ومقامة ، فلقد كانت البلاغة العربية ، والبيان العربي بوجه عام ، مسرحاً حياً ، قامت فيه الكلمات والعبارات مكان الشخص تحاور وتجادل وتناقش ، وتغدوا وتروح ، فإذا أنت منها بمشهد من مشاهد التمثيل لأعظم الروايات ، وعلى أعظم المسارح .¹

بين الموسيقى والجمال :

وهكذا ، فإننا نجد اللغة العربية قد احتوت الكثير من أسرار جمال الفنون ، ومظاهرها ، والذي عاون على ذلك هو طبيعة اللغة العربية ، بما فيها من موسيقى وجمال .

فهي اللغة الشاعرة ، أو لغة الوزن فعلاً أو سماعاً ، كما يقول أستاذنا / عباس محمود العقاد (رحمه الله) ، والذي يستطرد في تأكيد هذا المعنى ، وتوضيحه ، بقوله : ولا جدال في أن الألفاظ العربية نفسها مخلوقة على أنماط موسيقية ، ولعل ذلك مما جعل أشعارنا أغنى أشعار الدنيا بالموسيقى ، وجعلها أكثر من غيرها قبولاً للترنيم والترديد والتلحين .

ومن أجل ذلك كانت الألفاظ نفسها في اللغة العربية كيانات موسيقية ، ولقد كانت هذه اللغة الشاعرة بفضل ما فيها من : اتساع وكثرة وطواعية وموسيقية ، أكبر عوناً على نجاح فن الشعر (ديوان العرب وفنهم الأول) ، وجعله أكثر فنون العرب شهرة ، وأكثر أشعار الأمم انتشاراً ، بما تضمنته من ألوان الجمال ، وأسرار المتعة .²

¹ - عبد الكريم الخطيب ، إعجاز القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ص 91

² - العوضي الوكيل ، الشعر بين التطور والجمود ، القاهرة ، 1977 ، ص ص 88 . 89

حتى لقد كان الشعر هو الصورة النهائية للجمال عند العرب ، ولذا أودعوه أسرارهم
كثير من الفنون الجميلة الأخرى ، وأولها الموسيقى التي حرص العرب على انسجامها في
الشعر حرصاً شديداً ، ومن أجلها صنفوا علمي العروض والقافية (علم موسيقى الشعر) .

الموسيقى وغايات الشعر :

والحق يقال إن الموسيقى أدت أدواراً متعددة في خدمة أهداف وغايات الشعر كفن
من الفنون الجميلة ، فقد أصبحت إيقاعات الألفاظ مادة أساسية في الرمز يعبر بها الشعراء
عن خلجات أنفسهم تعبيراً يقصد به إلى الإيحاء بنفس الرنين والنغم .

وكأنهم يريدون أن تكون موسيقى الشعر ، موسيقى تعبيرية (تصويرية) تنقل
أحوالهم الوجدانية ، وخواطرهم النفسية نقلاً موجزاً ، وكأنهم قد عرفوا معرفة تامة مدى
تأثير النغم الجميل في السامع ، فهم يوقرونه في حرص شديد .

وكأننا لا نستمتع إلى ألفاظ فحسب ، وإنما نستمتع أيضاً إلى موسيقى ينتظم فيها
الإيقاع إلى أقصى حد ممكن .¹

الصقل عن طريق الغناء :

ولم يقتصر أجدادنا على تضمين شعرهم فن الموسيقى ، وإتقانها فيه إلى هذه الدرجة
الرائعة بل تغنوا به ، وصقلوه عن طريق الغناء ، حتى صار فناً غنائياً .

ولا غرابة في ذلك فإن الموسيقى من مقدمات الغناء ودواعيه في التغني بالشعر إتماماً
للمتعة الفنية ، وتتمياً للوحدة الجمالية فيه .

¹ - شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، دار المعارف ، القاهرة ، 1980 ، ص 41

ولذلك نجد الشاعر المخضرم / حسان بن ثابت (رضي الله عنه) يوصي الشعراء
بالتغني بالشعر ، لأن الغناء يصقله ، ويجوده .

يقول حسان :

تغن بالشعر ! ما كنت قائله

إن الغناء لهذا الشعر مضمار .¹

الغناء والقيم الجمالية :

وعن طريق الغناء ضمن الشعراء لشعرهم كثيراً من القيم الجمالية الغنية التأثير ،
وأشربوه ماء السحر أو فلنقل ماء الفن الجميل المؤثر ، وغذوه روح الجمال ، وبذلك ثقف
العرب شعرهم بالغناء ، وأقاموه على أصول موسيقية ، فكان من نتيجة ذلك أن صار من
بين الفنون الجميلة .

ندرك ذلك جيداً عندما نشدوا أو نتغنى بقول الشاعر الفارس / أبي فراس
الحمداني، وهو في الأسر يناجي حمامة ، فيقول :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيا جارتاً لو تعلمين بحالي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى

ولا خطرت منك الهموم ببال

¹ - أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الكتب المصرية ، 1945 ، 5 / 51

أيا جارتاً ما أنصف الدهر بيننا

تعالى أقاسمك الهموم تعالي

تعالى تري روحاً لدي ضعيفة

تردد في جسم يعذب بالي

أيضحك مأسور وتبكي طليقة

ويسكت محزون ويندب سال؟ !

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة

ولكن دمعي في الحوادث غال.¹

وبعد ذلك ، أظنك معي - أيها القارئ المفضل - في أن هذا الشعر رق حتى ليكاد
يذهل الإنسان عن نفسه فلا يتنبه إلا وهو يضرب على هذا الوتر الحنون الذي يعزف عليه
الشاعر الفارس / أبو فراس الحمداني ، بنغمة الحزين .

الأحاسيس والمشاعر :

ولا تقل قدرة الشعر العربي على التصوير ، عن قدرته الموسيقية أو الغنائية ، حتى
لنجد فيه المرأة الصافية الصادقة التي تبرز الأحاسيس ، وتعكس بجلاء المشاعر مهما دقت
ورقت ، نحد ذلك عندما نقرأ هذه اللقطة الفنية للشاعر السوري اللبناني / خليل مردم عن
طفل وأمه ، يقول فيها :

هش لما حملته أمه

¹ - أبو فراس الحمداني ، ديوان أبي فراس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1981 ، قافية حرف اللام

ودنا من وجهها بالراحتين

جاز ما بينهما شوقهما

قبلة تجزيه عنها قبلتين

من رأى عيسى يناجي مريباً

أو رأى الزهراء يناغيها الحسين

وإذا ما عبثت في وجهه

عبثاً أو دفعته باليدين

جمع الأنف وضم الشفتين

وذوى اللحظ وهز المنكيين

وبدا الغيظ ولو دافعه

والحيا في وجهه ممتزجين

لج بي فرط حناني فأنا

من بكاءٍ وابتسام بين بين

بسمة حيرى أطافت بفمي

حين حارت دمعتي بالمثلتين .¹

¹ - خليل مردم ، ديوان خليل مردم ، دمشق ، بدون تاريخ ، قافية حرف النون

ولا يخالني أدنى شك - عزيزي القارئ - في أنك ترى معي أن هذه الصورة تعد لوحة فنية رائعة الجمال ، زاهية الألوان ، بارزة الملامح والقسمات ، واضحة الحيوية ، وزعت فيها التقاسيم بدقة ، وركز فيها الشاعر على الحركة بطريقة جعلت القصيدة تكاد تكون صورة مجسمة ، وتكاد الملامح فيها أن تنطق بما شع فيها من إحساس .

وقد بلغت الحبكة الفنية ذروتها ، عندما وجدنا الشاعر يفاجئنا بظهوره في الصورة ، وقد استبد به فرط الحنان ، واختلطت أحاسيسه ، فبينما ندت منه دمة الإشفاق حارت على شفتيه بسمة السرور والسعادة .

وإن كان الشاعر / خليل مردم قد استبد به فرط الإشفاق والحنان لمداعبة الطفل وأمه ، فلقد استبد بنا فرط الإعجاب بهذه الأبيات فلا ندري أهى لوحة مصورة أم هي صورة شعرية ؟ ! .

عندما يقاسم الشعر الفنون ميزاتهما :

الشعر العربي في تاريخه الطويل قاسم كثيراً من الفنون الجميلة ميزاتهما ، بل أننا كثيراً ما نجدتها مجتمعة في قصائده ، فبعضها قد نال من الموسيقى سحرها وأنغامها ، ومن الغناء شذوه وتطريبه ، ومن الرقص إيقاعه وتوقيعاته ، ومن التصوير وضوحه وجماله ، ومن الرسم نبضه وأحاسيسه ... أجل ، لقد أخذ الشعر من الموسيقى ألحانها العذبة المؤثرة ، ومن الغناء سحره ، ومن الرقص إيقاعه ، والشواهد على ذلك في شعرنا العربي أكثر مما تعد وتحصى .

قيمة الشعر في الجوانب التهذيبية :

غني عن البيان أن الشعر قد تفوق على الفنون الجميلة في جانب جمالي آخر على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية ، ونعني بذلك الجانب التهذيبي ، الذي يعد غاية الغايات

للفنون الجميلة كلها ، مع كل الاحترام والتقدير للذين ينادون بمبدأ الفن للفن أو الحرية دون حدود للفن .

في هذا الجانب الأخلاقي أو التهذيبي ، فإن الشعر العربي بلغ الذروة ، ونال كل الإعجاب ، فما جاء فيه من حكم ، وأمثال ، وأخلاق ، ونظرات صائبة ، وفلسفة ، ودعوات إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الحميدة الصالحة ، يفوق كل تصور .

بل إن الشعر العربي يجعل بناء الروح غاية من أجل غاياته ، فغاية الأدب كغاية الفنون الجميلة الأخرى ، وهو يشاركها فيما لها من آثار تربوية وتثقيفية وتهذيبية ، تعاون على ترقية الحياة والنهوض بها ، وإزالة جفوتها ، وتهوين مشاقها ، والكشف عن أسرار جمالها الحقيقية ، بل هو في هذا المجال يكاد يسبق الفنون الجميلة كلها ، وينفرد عنها بالشراء والوضوح .

فلنقرأ معاً قول أبي الطيب المتنبي (شاعر العربية الأكبر) :

ومراد النفوس أصغر من أن

تتعدى فيه ، وأن تتفانى

غير أن الفتى يلاقي المنايا

كالحات ولا يلاقي الهوانا

نجده يثير في أنفسنا عاطفتي العزة والكرامة والتشبث بهما ، ولكنه يأخذ بفكرنا إلى مجال فلسفي عميق ، فيقرر أن مقالب النفوس من الطعام والشراب واللباس لا تستدعي

على وجه الإطلاق هذا التطاحن العنيف ، والتعادي الحاد ، وإذن فلماذا كل هذا الصدام والتناحر ؟! ، إنه لغاية أخرى هي الكرامة والحرية .¹

تحصيل المعاني الوجدانية :

ومن هنا ندرك أن الشعر مع مشاركته لغيره من الفنون الجميلة الأخرى في جمال التصوير ، وقوة التأثير ، فإنه يحتفظ لنفسه بميزات لا توجد في غيره من بقية الفنون .

ومن تلك الميزات أن الأديب المطبوع يستطيع بلطف تأليفه أن يريك من الحروف والكلمات شمائل الأشياء ، وصور الكائنات ، ويتجاوز في ذلك إلى تحصيل المعاني الوجدانية التي قلما تنالها تهاويل النقش ، وأصباغ التصوير .

وكأن الأدب من هذه الناحية أرقى طبقات الفنون ، وأكرمها أثراً في النفس ، وهو بلا سبب نفحة إلهية فطرية متصلة بمشاعر النفوس ، وقوة الخيال .²

مقياس جمال القول :

والذي نرمي أن نصل إليه هو أن الشعر بخصوصه ، والأدب العربي بعمومه ، يتمتع بكثير من القيم الجمالية ، التي كانت موضوعاً للعمل الأدبي البليغ ، وهدفاً من أهدافه ، وحيثما وجدت البلاغة ازدهر نجم الجمال ، ومن هنا فإن الأدب البليغ ، أو الأدب الناجح هو ذلك الأدب الذي يؤثر في النفوس بجماله وروعته .

ومقياس قوة التأثير من أدق المقاييس التي يجب أن يأخذها النقد الأدبي في الحسبان ، وذلك من أجل معرفة جمال القول وبلاغته .

¹ - أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مرجع سبق ذكره ، ص 71

² - هاشم عطية ، الأدب العربي و تاريخه ، مطابع المعاهد الأزهرية ، القاهرة ، 1976 ، ص 62

وإذا ما عرضنا نماذج من الأدب العربي على هذا المقياس ، فإننا سندرك مدى بلاغته وجماله .

ولا ننس في هذا المقام ما شهد به الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) لقوة تأثير الأدب الجميل ، في قوله (صلى الله عليه وسلم) : "إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة " .

والعرب أنفسهم قد أدركوا جمال القرآن الكريم بمعانيه وحلاوته وطلاوته ، وقوة تأثيره ، وشهدوا له بأنه يعلو ، ولا يعلى عليه .

ولقوة تأثير الشعر عدوه من خير صناعاتهم وأنفعها على حدّ تعبير الفاروق / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، في قوله : "خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستميل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم " ¹

فمن غايات الشعر الذي هو في الأساس تعبير عن المشاعر والأحاسيس ، وعكس الواقع المعاش ، من غاياته هنا الاستمالة والاستعطاف .

الشعر والأمانى الغالية :

ولمعرفة العرب بجمال القول وتأثيره في النفوس ، اعتبروا الشعر متعة ، بل وتحية للضيف ، فيقول قائلهم :

لحافي لحاف الضيف ، والبيت بيته

ولم يلهنى عنه غزال مقنع

¹ - عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، طبعة وزارة التربية والتعليم المصرية ، القاهرة ، 1977 ، ص 245

أحدثه إن الحديث من القرى

وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وجمال القول يبلغ منتهاه عندما يكون أحد الأمانى الغالية التي يسعى المرء أو يعيش من أجلها .

يقول الفاروق / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : "لولا أن أسير في سبيل الله ، وأن أضع جبهتي له ، وأن أجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث ، كما ينتقون أطايب الثمر ، لم أبال أنني قدمت ."¹

فالفاروق / عمر بن الخطاب يرفع من شأن أطايب الحديث والكلم ، حتى أنه يجعلها مع الجهاد في سبيل الله تعالى ، والسجود له ، في نسق واحد .

ولعل ذلك يؤكد لنا مدى معرفة أهل العربية بلغتهم الجميلة ، إدراكهم الواعي لقيمة الكلمة ودورها في التربية والتهذيب والتعليم ، ودورها في البناء والتنمية ، ونهج الطريق المستقيم .

إسلام عمر بن الخطاب والجمال الأدبي :

ومن أوضح الدلائل على صدق تأثير الجمال الأدبي قصة إسلام الخليفة الراشد / عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، الذي كان يعرف في الجاهلية بالجبار ، الذي خر باكياً أمام روعة القرآن الكريم ، وقوة تأثيره .

ف قيل أنه لما سمع القرآن من الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) رق له قلبه ، فبكى ، ودخل الإسلام راضياً مرضياً .

¹ - عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، نفس المرجع السابق ، ص 247

ويؤكد أستاذنا / عباس محمود العقاد في كتابه (عبقريّة عمر) ، على أن : بلاغة القرآن الكريم ، هي التي مالت بعمر إلى الرحمة والإيمان .

مثال آخر : إسلام "الطفيل بن عمرو" :

وما قصة إسلام سيد بني دوس (الطفيل بن عمرو) عنا ببعيدة ، فقد روى أن سادة قريش عندما علموا بقدومه ، وكان شاعراً نبيلاً نبياً ، قرروا أن يستقبلوه قبل أن يدخل إلى مكة حتى يحولوا بينه وبين سماع القرآن الكريم من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خوفاً من أن يسلم ، فتسلم معه قبيلته ، فأسرعوا إليه ، وقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل (يقصدون محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم) قد فرق بين جماعاتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وأخيه وزوجته .

وأضافوا قائلين : وإننا نخشى عليك وعلى قومك ... ثم مازالوا به حتى أقنعوه ، وقد أجمع أمره ألا يكلم محمداً ، ولا يسمع منه ، ومضى إلى الكعبة ، وقد حشا أذنيه قطناً حتى لا يبلغه صوت الداعي إلى الإسلام .

لكنه ما كاد يرى المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يصلي عند الكعبة حتى اقترب منه ، فنفذت إلى سمعه كلمات من القرآن الكريم .

فقال طفيل : والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي القول ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

ثم ذهب طفيل إلى بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقص عليه قصته ، فعرض عليه رسول الله أمره ، وتلى عليه من القرآن الكريم ما تيسر له ، فما كان من الطفيل بن عمرو

إلا أن خشع وأسلم ، وما كان إسلامه إلا لروعة القرآن الكريم، وصدق جماله، وقوة تأثيره.¹

عندما يهز الشعر النفوس الكريمة :

ويروي الجاحظ في كتابه الموسوعي (البيان والتبيين) كثيراً من هذه الأمثلة التي هز فيها الشعر النفوس الكريمة ، كهذا الشعر الذي قالتة قتيلة بنت النضر- بن الحارث ، حين عرضت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يطوف بالبيت الحرام ، واستوقفته ، وجذبتة من ردائه ، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها ، فلما سمع قولها : -

أيا راكباً الأثيل مظنة

من صبح خامسه وأنت موفق

أبلغ به ميتاً بأن نجبه

ما إن تزال بها الركائب تحقق

مني إليه وعبرة سفوحه

جادت لمانحها وأخرى تحقق

هل يسمعن النضر إن ناديته ؟

أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه

لله أرحام هناك تشفق

¹ - بسيوني عرفه رضوان ، مقاييس الجمال البلاغي ، مرجع سبق ذكره ، ص 59

قسراً يقاد إلى المنية متعباً

رسف المفتد وهو عان موثق

أحمد ها أنت نجل نجيبه

من قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضيرك لو مننت فربها

من الفتى وهو المغيظ المحنق

أو كنت قابل فدية فلتأتين

بأعز ما يغلو لديك وينفق

والنضر أقرب من قتلت وسيلة

وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته .¹

والحجاج يتأثر هو الآخر :

وهذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذراع الحديدية لبني أمية ، وقد ضرب أعناق أسرى ، فلما قدموا إليه رجلاً ليضرب عنقه ، قال الرجل : والله لئن كنا أسأنا الذنب فما

¹ - الجاحظ : أبو عمرو عثمان بن بحر ، البيان والتبيين ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1941 ، 3 / 263

أحسن العفو ! ، فقال الحجاج : أف لهذا الجيف أما كان منها أحد يحسن أن يقول مثل هذا ، ويمسك عن العقل ؟ - ويقال أن الحجاج قد عفا عن الرجل ومن معه .¹

تأثير القول البليغ :

وهذا هو تأثير القول البليغ في نفوس العرب الخالص نراه قد عظم حتى رفع الحواجز ، وأزال الضغائن ، وأنسى الأحقاد ، وجلا عن القلوب صدا الكفر والعنجهية والغرور والتعالي ، وغسل من الصدور أدران الحقد ، ومسح من النفوس سخائم الغل والغدر والكراهية ، نعم ، إنه السحر الساحر الجمال ، أدركه العربي في كل شيء ، ولم يتوقف به عند الجمال الحسي الذي شغل به في أول الأمر ، بل ترقى في نظرهم حتى أدركوا في الطبيعة ، وأدركوه في المرأة التي كنوا لها كل التقدير والاحترام ، وأدركوه في فن الغزل .²

شاعرة تصور مأساتها :

واستمرارا لبعض النماذج والأمثلة التي نذكرها لك ، نقول : لقد كان بين القبائل في العصر الجاهلي تنافس وصراع ، وكانت الحياة عندهم سلسلة لا تكاد تنقطع من الغارات والمعارك ، وقد سجل التاريخ الجاهلي معارك مشهورة سميت (أيام العرب) .

والأبيات التي سوف تطالعها بعد قليل تصور لك إحدى هذه المعارك ، وتنفرد بتصوير مأساة مما كانت تنجلي عنه .

ها هي جليلة بنت مرة بن ذهل من شيبان ، والذي ينتهي نسبها إلى قبيلة بكر ، وقد تزوجت من وائل بن ربيعة ، المعروف بكليب ، وكان كليب قد بلغ درجة كبيرة من الغنى ، والقوة ، والكبرياء ؛ حتى لقد منع أن ترعى إبل غيره في أرض له ، أو أن تشرب من الماء

¹ - الجاحظ ، نفس المرجع السابق ، 1 / 178

² - أحمد الحوفي ، الغزل في العصر الجاهلي ، دار النهضة للطباعة والنشر ، 1970 ، ص 101

الذي ترده إبله ، وحدث أن مرت هذه الإبل وهي في الطريق إلى الماء بناقة البسوس بنت منقذ التميمية ، ورآها كليب فغضب ورمأها بسهم فقتلها .

ثارت ثائرة البسوس ، وغضب لغضبها جساس ابن أختها ، وأخو جلييلة بنت مرة ، فتحين فرصة من كليب ، فقتله ، ونشبت بذلك بين بكر وتغلب حرب ظلت فيما يقول الرواة أربعين سنة ، وسميت (حرب البسوس) .

ولما اجتمع نساء الحي في مأتم كليب - وفيهن جلييلة زوجة القتيل وأخت القاتل - رأت أخت كليب في بقاء جلييلة بينهن شماتة وعار، فقالت لها: يا هذه ، اخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واترنا (الذي قتل قتيلاً منا)، فخرجت حزينة مهمومة ، ويقال أن جلييلة تقوض بيتها وسيادتها، وراحت تتنقل مع قومها من بكر مدة حربيهم مع تغلب، وتوفيت سنة 385م، ولنقرأ معاً أبيات جلييلة بنت مرة الشاعرة التي تصور مأساتها :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا

تعجلي باللوم حتى تسألي

فإذا أنت تبينت الذي

يوجب اللوم فلومي واعذلي

إن تكن أخت امرئ ليست على

شفق منها عليه ففعلي

جل عندي فعل جساس فينا

حسرتي عما انجلت أو تنجلي

فعل جساس على وجدي به

قاطع ظهري ، ومدن أجلي

يا قتيلاً قوض الدهر به

سقف بيتي جميعاً من عل

هدم البيت الذي استحدثته

وانثنى في هدم بيتي الأول

يا نسائي دونكن اليوم قد

خصني الدهر برزء معضل

خصني قتل كليب بلظى

من ورائي ولظى مستقبل

يشتفي المدرك بالثأرو في

درك ثأري ثكل المشكل

إنني قاتلة مقتولة

ولعل الله أن يرتاح لي¹

¹ - إبراهيم عابدين وآخرون ، الأدب والنصوص (العصران الجاهلي والإسلامي) وزارة التربية والتعليم المصرية ،

القاهرة ، ص 21

ولعل القارئ الكريم يلاحظ في هذه الأبيات التي قالتها جليلة بنت مرة أنها تستخدم لغة عربية فصيحة وواضحة في نفس الوقت ، ولا نبالغ إذا قلنا أنها تشبه لغتنا العربية المعاصرة ، وما أقربها إلى الخطاب الأنثوي البليغ ، لكل ما فيه من تأثر وعاطفة متحرقة على أخ لها في مأزق شديد ، وحيرتها البالغة بين أخيها القاتل وزوجها القاتل .

ولهذه القصيدة منزلة خاصة لدى الأدباء ونقاد الأدب ، فهي قصيدة تعبر تعبيراً حياً صادقاً عن عواطف امرأة وجدت نفسها فجأة ضحية لنكبة من نكبات التهور والطيش ، قضت عليها وعلى آمالها ، وأدت إلى دمار قبيلتين يربط بينهما رباط القربى والصهر ، كما نلاحظ أن أفكارها مترابطة ، تسلم فيها الفكرة إلى الفكرة ، وكلها في موضوع واحد ، كما نجحت جليلة في توضيح موقفها من الجريمة البشعة التي ارتكبتها أخوها ، وفي تصوير رابطة الأخوة التي لم تستطع مقاومتها ، يضاف إلى ذلك أن صورها معبرة ، والجميل فيها أنها وإن لم تلجأ إلى الخيال كثيراً فقد أجادت في تصوير الواقع ، ثم تأتي ألفاظها الحلوة السهلة ، المعبرة عن روح المرأة ومشاعرها .

دعوة إلى السلام :

من القصائد الخالدة التي ذاعت في العصر الجاهلي ، وعرفت باسم المعلقات ، معلقة زهير بن أبي سُلمى المزني ، والتي بدأها بقوله :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالتسلم ؟

وقد قالها زهير في مدح رجلين من سادات العرب ، هما : هرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، اللذان قاما بالصلح بين قبيلتي : عبس وذبيان ، بعد حرب داحس والغبراء التي استمرت بينهما زمناً طويلاً ، وخلفت وراءها كثيراً من صور البؤس واليتم والدمار .

وسبب هذه الحرب : أن قيساً بن زهير سيد بني عبس كان له جواد اسمه (داحس) ، وأن حمل بن بدر من ذبيان كانت له فرس تسمى (الغبراء) ، وكان من عادة العرب في الجاهلية أنهم يعقدون للسباق حلقات يتراهنون فيها على الخيول الكريمة ، وحدث أن تراهن قيس بن زهير ، وحمل بن بدر على داحس والغبراء ، وجاء وقت السباق ، وخاف حمل أن يسبق داحس فرسه ، فلجأ إلى حيلة دبرها مع بعض فتيان قومه ، إذ أمرهم أن يكمنوا في طريق داحس ، ويضربوا وجهه إذا جاء سابقاً ، وفعل الفتيان ما أمروا به ، فسبقت الغبراء ، وشاع الخبر ، وانكشفت الحيلة ، وعرفها قيس بن زهير ، فغضب وغضبت لها عبس كلها ، واتسعت هوة الخلاف بين القبيلتين حتى انتهت إلى هذه الحرب الطاحنة التي ظلت - فيما يقال - أربعين عاماً ، حتى تقدم هذان الرجلان ، وهما من قبيلة ذبيان فأصلحا بين القبيلتين ، واحتملا ديات القتلى ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير .

وكان ذلك منهما صنغاً كريماً ، هز زهير بن أبي سلمى شاعر الحكمة والسلام ، فأنشأ فيها معلقته التي نسوق لك فيما يلي بعض أبياتها .

يقول زهير بن أبي سلمى :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يكتن الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
ولكن عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطى يعمر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يضرس أنياب ويوطأ بمنسم
ومن يحمل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذمًا عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم¹

ولعلنا قد لاحظنا في هذه الأبيات ما امتاز به زهير من عقل ، وحكمة ، وحب للسلام ، ونزعة للتدين ، وما اشتهر به من ضرب الأمثال ، ونقد المجتمع والتعريف بشيء من أحواله ، كما نلاحظ معاني زهير الكريمة الواضحة البعيدة عن الإسفاف ، والتي لا غموض فيها ولا إبهام .

كما يمكننا أن نعرف بعض ما تميز به أسلوب زهير من خصائص مثل جزالة اللفظ ، ومتانة التركيب ، مع نقاء العبارة ، وبعدها عن التعقيد والإغراب ، كما نجد أخيلة الشاعر منتزعة من البيئة الجاهلية ، شديدة الاتصال بها ، والصور ناطقة بالحياة ، نابضة بالحركة ، يكاد القارئ يرى ما فيها ماثلاً أمامه²

أسرار الجمال في الأدب :

وكثيراً من النقاد الذين بحثوا عن أسرار الجمال في الأدب العربي يعزونها إلى معانيه الجميلة ، وما فيه من عواطف نبيلة ، وعزاها آخرون إلى موسيقاه ، وحسن التصوير فيه ، مما جعله يحظى بمزايا كثير من هذه الفنون الجميلة المعبرة ، فهذه الفنون هي لغة الإنسانية ، وهي تقاس بمقدار ما اجتمع لها من أسباب الحُسن ، وبمدى قدرتها على التأثير في الناس ، وما تثيره في نفوسهم من إحساس باللذة أو الألم أو الرضا أو السخط ، فالألحان الموسيقية

¹ - الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ،

القاهرة ، 1968 ، معلقة زهير بن أبي سلمى المزني ، ص ص 86 . 106

2 - يسري عبد الغني عبد الله ، عندما يكون تراثنا الفكري والأدبي مصدراً لقوة الحضارة العالمية ، القاهرة ،

2015 ، ص 10 وما بعدها .

والقطع الفنية والرسوم يحس ما فيها من حسن وجمال ، كل إنسان سوي كامل الحواس ،
قادر على التذوق .¹

ومثلها : الشعر جماله في قدرته على إثارة انفعال قارئه ، والأدب دائماً يملك القدرة
على إحداث نفس التأثير الذي تحدثه سائر الفنون الجميلة في النفوس الطيبة ، والذي لا يجوز
أن ننساه أن الأدب فن جميل ، وأنه إذا فقد الجمال جاز لنا أن نسميه شيئاً آخر غير الأدب .

خاتمة :

ونخلص من سطورنا السالفة إلى أن الأدب باتفاق النقاد وأهل البحث الأدبي فن
جميل أبل ويمتاز على الفنون الجميلة الأخرى بالوضوح ، وجمعه بين كثير من مزاياها .

لذلك شغل به أهله عن غيره من كثير من العلوم والفنون الأخرى ، ومن بينها النظر
المبكر قي الفلسفات الجمالية ، واكتفى العرب بالتعبير عنه بطريقتهم المفضلة التي يحبونها
ويتقنونها ، ويحسنونها ، وهي اللغة الأدبية .

¹ - بدوي طبانة ، قدامه بن جعفر ، القاهرة ، 1959 ، ص 70 . وكذلك بسيوني عرفة رضوان ، الجمال بين
الفلاسفة والبلغاء ، مرجع سبق ذكره ، ص 73

الفصل السابع

بلاغتنا الجميلة من ينقذها .. ؟

(محاولات لمعالم جديدة ورؤية مختلفة)

حتى نقيّل العثرة :

في هذه السطور نحاول أن نسجل قدر الطاقة والإمكان ما يجب علينا نحو بلاغتنا العربية الجميلة حتى نستطيع أن نقيّل عثرتها ، فتؤتي ثمارها على الوجه الأكمل ، ونعود بها إلى حقلها الثري وهو الأدب ، وخاصة أن البلاغة متصلة تمام الاتصال بالمعارف البشرية العامة ، علوماً كانت أم فنوناً ، فهي تستمد موضوعها من : القرآن الكريم ، والحديث النبوي المطهر ، وكلام الأجداد العرب بجميع ألوانه وأنواعه . أي إجمالاً : من الأدب ، وأحسن ما في الأدب .

وطوال اتصالنا بالأدب العربي في عصوره المختلفة طالعنا بجلاء ووضوح التراكيب الفنية ، وما فيها من تألق في القول أو إن صح أن لها قواعد أو ما يشبهها ، فليس ذلك في التحليل الأخير إلا أثراً من آثار الاستقراء الأدبي المتأني والملاحظة الفنية التي تتأتى من طول الدربة ، وعمق الممارسة .

والموهوبون أديباً يعرفون تمام المعرفة مزايا الذوق الأدبي بأنفسهم ودون واسطة ، أما غيرهم فلا يصلون إلى ذلك المرمى إلا إذا ساعدتهم الوسائط ، ونعني بها الدراسات الفنية التي توظف في وجدانهم ما خفي من الذوق الأدبي ومزايه وأسراره .

وإذا كان الأدب هو مصدر البلاغة ومنهلها العذب الذي لا ينضب ، فإن تاريخه المنهج الصحيح هو وسيلة الاستنتاج الصادق من هذا الأدب ، ومن هنا تعود آثاره على الدرس البلاغي ، وتمنح أسسه وقواعده الصحة والدقة .

نقول : إن الأدب وثيق الصلة بالبلاغة ، وتاريخه الطويل الممتد متصل بها عن قرب قريب ، وعلينا أن ننتفع بتلك الصلة الحميمة من أجل أن تكون أحكامنا البلاغية أهدي سبيلاً وأدق نظراً ووعياً وإدراكاً .

ولغتنا العربية التي نزل بها القرآن الكريم هي من اللغات الشاعرة التي يلعب فيها الخيال - إذا ما أحسن الوعي به ، وأحسن استعماله - دوراً كبيراً فاعلاً ، وهي قادرة رغم أنف هؤلاء الذين يهاجمونها ويحطون من شأنها لأغراض مكشوفة ومعروفة ، قادرة - دون أدنى شك - على المرونة والتطور والبقاء واستيعاب كل أوجه إبداعنا الفني والأدبي والعلمي ، والاتساع لكل ما يجد في حياتنا المعاشة من مصطلحات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، واختراعات علمية وتقنيات حديثة ، وكأنني بها تعتب علينا في قول الشاعر / حافظ إبراهيم :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية

وما ضقت عن أي به وعظمت

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسيق أسماء المخترعات ؟ !

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل سألو الغواص عن صدقاتي؟!

فلا تكلوني للزمان فإنني

أخاف عليكم أن تحين وفاتي

فأين ذلك الغواص الماهر الذي يكشف عن صدقات لغتنا الشريفة ؟ !

إن علينا تجاه دراسة وبحث وتدريس البلاغة العربية عامة ، وألوان الخيال بصفة خاصة (التشبيه – الاستعارة – الكناية – المجاز ... إلخ ..) بكل ألوانها وفروعها ، واجبات أربعة مهمة ، عناوينها كالتالي : -

1 - واجبنا نحو تدريس البلاغة .

2 - واجبنا نحو التأليف في البلاغة .

3 - واجبنا تجاه البلاغة نفسها .

4 - واجبنا فيما يخص تطبيق المسائل البلاغية في النقد الأدبي .

فلعلنا نوفق في توضيح هذه الواجبات لتعم الفائدة بإذن الله تعالى .

تدريس البلاغة وصلتها بالحياة :

إن واجبنا نحو تدريس البلاغة العربية هو وصلها بالحياة المعاشة أو ذلك يكون بالتدرج أو نقترح أن يكون ذلك عبر ثلاث خطوات :-

الخطوة الأولى :-

أن نتلمس في لغتنا الدارجة عبارات تصلح - بعد أن نجعلها معربة - أمثلة لمسائل البلاغة فإذا عرضنا على أبنائنا من الطلاب أو القراء هذه الأساليب ، كان من اليسير عليهم أن يتذوقوا جمالها ، وفي كلامنا اليومي العادي ألوان بارعة لضروب التصوير البياني (الخيالي أو البلاغي) ، ولغيرها من ألوان الخيال البسيط المعبر ، فعلى سبيل المثال : نحن نكني عن شدة الزحام بقولنا : (ترش الملح ما ينزلش) أي يمكن لنا أن نحول الفعل الأخير إلى فعل فصيح ، فتصير الكناية غاية في الروعة .

وكقولنا لمن لم يفعل ما كنا نرجوه منه : (قصرت رقبتنا) أو كقول بائع الطماطم في السوق (مجنونة يا طماطم) ، وتلك كناية عن عدم استقرار سعر الطماطم التي تتأثر بتقلبات الجو فيرتفع ثمنها تارة وينخفض تارة أخرى ، أو قول بائع (الكتاكت) : (الملاح الملاح) وتلك كناية عن جمالها .

ويطول بنا المقام لو حاولنا مجرد عد أمثال هذه الصور اللطيفة الجميلة المعبرة فضلاً عن حصرها .

وعلى الإجمال فإن معظم أمثالنا العربية الفصيحة والشعبية الدارجة تتحقق فيها تلك المزية النادرة أولكن أين الغواص الماهر كي ينقب لنا عن هذه الصدقات ؟ ! .

الخطوة الثانية :

وبعد التلمس في لغتنا الدارجة والتي لا نشك في أن الأغلبية العظمى من ألفاظها تعود إلى أصول فصيحة ، نقترح أن نتقل بعد ذلك مباشرة إلى أدبنا الحديث ، شعره ونثره ، لأن لغته أقرب وأيسر للمتلقي من الأدب القديم ، فيسهل عليه تبين أوجه الجمال البلاغي ، والوقوف على أسرار الجمالية ، وإدراك مناحيه البلاغية .

الخطوة الثالثة :

وبعد هاتين الخطوتين أعتقد أنه يصبح المجال سهلاً لتذوق أمثلة أدبنا العربي القديم بمراحله التاريخية المختلفة .

وبهذه الخطوات ينتقل الطالب أو الدارس أو القارئ للبلاغة العربية انتقالاً طبيعياً تدريجياً ، ويرى بجلاء ووضوح أن مسائل البلاغة ليست بعيدة الباتة من حياته المعاشة ، ولكنها قريبة كل القرب وموجودة بالفعل في واقعه اليومي ، وبين يديه ، في أدبه الحديث المعاصر ، وفي نفس الآن موصولة بترائه القديم .

الحاجة إلى نظرات جديدة :

نعم ، نحن في حاجة ماسة إلى نظرات جديدة ، نظرات جادة في مبادئ هذا الفن الجميل الذي ظلمناه طويلاً ، فن البلاغة العربية .

ونرى أن الضرورة قصوى ، والحاجة ماسة ، تحتم علينا أن نفعل ذلك ، ونساعد عليه ، وقد يرى معي كل مهتم بلغتنا العربية الشاعرة أن عقارب الساعة تشير إلى أن ذلك قد حان بالفعل ، حان الوقت لأن نرفع الظلم الذي وقع على بلاغتنا العربية ، وذلك عن طريق النظر في قواعدها ، وتصنيفاتها من جديد ، تصفية علمية استقرائية منهجية تلائم لغتنا

العربية ، بعيداً عن المناهج المجلوبة من الخارج ، وبعيداً عن الآراء المتحذلقة المتفقهة
الممجوجة ، والتي تضر ولا تنفع .

وقد أجد أحد القراء الأفاضل يقول لي : إن هذا الكلام الذي تقوله عام جداً ، فهل
لك أن توضحه أو تفصحه بشيء من الخصوصية ؟

وأرد قائلاً : إن هذا يثلج صدري ، وأحب أن أقول : ينبغي أن يكون في حسابنا
وحسابنا أن البلاغة العربية هي سناد الأدب ، وهذا ما اتفقنا عليه في بداية هذه السطور ،
كما لا يغيب عن السائل الكريم وعنا أن الأدب هو صورة للحياة وسجلها الدائم ، وإذا
كانت الحياة من سننها التقدم والتطور ، وإذا أتيحت الفرصة للأدب أن يساير هذا التطور
الحياتي في مختلف أشكاله ، وشتى مظاهره ، وكافة مستحدثاته ، فلا أقل للبلاغة - وهي
معتمده - أن يشملها التطور هي الأخرى حتى لا يشعر أهل التلقي من القراء والمتذوقين
والمتابعين ببعد الشقة بينها وبين الأدب بشتى أجناسه وأنواعه .

وعليه فيجب علينا أن نفتح الباب على مصراعيه - دون خوف أو وجل أو تردد - كي
نتفع كل الانتفاع بعلوم كثيرة باتت بين أيدينا في هذا المضمار ، وذلك مثل : علم الجمال ،
وأبحاث التذوق الفني ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الأدبي ، وعلم الاجتماع
الأدبي ، وغير ذلك من العلوم التي تبحث في الاتصالات الواسعة بين الفنون الجميلة ، كما
يجب علينا الاستفادة بالموسيقى والتصوير والرسم والنحت (طالما كانت هذه الفنون تناسب
قيمنا وعاداتنا وثوابتنا) أو كل الفنون المعبرة التي قطعت فيها الإنسانية شوطاً كبيراً ...

كل هذا يدفعنا إلى إعادة النظر في بلاغتنا العربية على أساس خصب متعمق ، لا
يعرف التقوقع أو الانعزال ، أساس يستلهم هذه المنافع الفنية من أجل أن يوردنا حياضها
فنسقى مع الشارين ، دون أن نقف جامدين متجمدين ، إلى أن يجف المنهل العذب .. !!

الغرض من التجديد :

إذا كان الأمر كذلك ، فإن التجديد الذي ننشده له غرضان : غرض قريب ، وغرض بعيد .

أما الغرض القريب : فهو ضرورة تسهيل دراسة المواد الأدبية ، وتوفير ما يبذل فيها من جهد ووقت مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقاً علمياً مفيداً ومؤثراً ..

والذي يحقق هذا الغرض - في رأينا - المنهج الصالح المتكامل ، والكتاب الجيد المنظم ، والمعلم أو الباحث الكفء .

ونأتي إلى الغرض البعيد : وهو أن تكون دراسة البلاغة العربية مادة مهمة من مواد النهوض والارتقاء والإصلاح الاجتماعي تتصل بشكل حميمي ومباشر بمشاعر الأمة كلها ، وترضي كرامتها الشخصية ، وكينونتها الذاتية .

وإذا كان الأمر كذلك ، وقد اتفقنا عليه فلا مانع إذن من أن نتجاسر ونختلف مع أستاذنا الشيخ الجليل / أمين الخولي (رحمه الله) ، والذي كان يرى أن نعمل رأساً إلى تحقيق الغرض البعيد في تجديد البلاغة العربية ، تجديداً يمس الأصول والأسس (الثوابت) فنغيرها ، وننفي منها ما نشاء ، ونثبت ونخالف ، ونتناول بعد ذلك كل المسائل كما نريد ، وذلك بعد ما استطعنا التحكم في الأصول الكبرى .. !!

لهذا نعيد النظر في البلاغة :

وبالطبع نحن نقدر ونحترم هذا الرأي السابق ، ونؤمن تمام الإيمان بضرورة النظر في قواعد البلاغة العربية ، ولكن لنا أسبابنا ، والتي نوجزها فيما يلي : -

- 1 - نعيد النظر في قواعد بلاغتنا العربية القديمة لنهذبها ونشذبها ، ليسهل على الجميع تعاطيها ، والاستفادة منها .
- 2 - نعيد النظر في هذه القواعد لتنقيحها مما أصابها من الخلافات والاعتراضات السقيمة التي تعطل القدرة على الاستيعاب والفهم .
- 3 - نعيد النظر في هذه القواعد لتنقيحها من منطق المقدمات الجامدة ، واستنتاج النتائج التي طغى عليها .
- 4 - لنقلل من القواعد الجامدة العقلانية التي تحد من إدراك القيم الجمالية المنطلقة من الأحاسيس والمشاعر الصادقة .
- 5 - لنكثر من الشواهد ونظهر جمالها .
- 6 - لنكشف عن القيم الجمالية التي تكسب الشاهد رفعة ومكانة .
- 7 - لتجنب فرض القاعدة على النص حرفياً دون نقض أو إبرام .
- 8 - لتحسس وندرك ونعي سبب الحسن والجمال في النص الذي نتعامل معه .
- 9 - لا ضرر ولا ضرار في أن ندمج بعض الألوان البلاغية التي تتشابه أو ذلك حتى لا تكثر التفرعات و التعريفات التي شوهدت بلاغتنا العربية الجميلة والتي هي من المفترض مفتاح الوصول إلى القيم الجمالية في العمل الأدبي .

عندما نكتب في البلاغة :

وهنا نطالب بضرورة ألا نقف ونحن نكتب في بلاغتنا العربية عند ذكر التعاريف والمفاهيم والأمثلة ، ونسعى إلى تبين أسرار الجمال ، وصلة ذلك بالنفس الإنسانية ، فذلك هو المهم والأهم .

عندما نكتب للناشئة والطلاب علينا أن نحاول ترك الأمثلة التقليدية التي لا تصلح لعصرنا الراهن ، وإن كان من اللازم اللاب استعملها فيكون ذلك بحذر شديد ، فلا نستعملها إلا من أجل فهم القديم واستيعابه وإدراكه ، لأنه لا جديد لمن لا قديم له .

وعلى أن ندع على الفور طريقة التلخيص وتلخيص التلخيص وشرح التلخيص وشرح شرح التلخيص ، وهذه طرق عقيمة لا تناسب المتلقي الحالي ، كذلك علينا أن ندع خلط المسائل البلاغية بالفلسفة والمنطق .

ويجب ألا نقف في دراسة المفرد والجملة عند الحدود التي رسمها الأجداد ، بل علينا البحث الجدي في ألوان جديدة للجمال في المفرد والجملة .

ولنعلم تمام العلم أن أهل البلاغة وكتابها فتحوا باب الاجتهاد في البلاغة على مصراعيه ، وقرروا أن البلاغة علم ينضج ، ولم ولن يحترق .

نأتي بعد ذلك إلى ضرورة تطبيق المسائل البلاغية على النصوص الأدبية ، كمقياس من مقاييس النقد الأدبي ، يجب أن نعرض هذا التطبيق في ثوب عصري مناسب ، ثوب يستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال ، ثوب يعتمد على الدرس النفسي- مؤثراً للشرح والتوضيح .

التجديد - بين الهدف والجهود المشكورة :

لعلنا جميعاً نتفق على أننا نشعر شعوراً واضحاً بأن الوقت قد حان للنظر في قواعد البلاغة العربية ، وتصنيفها من جديد ، وقد يلح علينا هذا الشعور لما نجد من (الترايل) والتلاؤم بين الأدب والبلاغة ، الأمر الذي يظهر لنا بجلاء السلبيات التي تواضع عليها البلاغيون القدماء في قواعدهم ونظرياتهم .

إن سنة التطور التي تشمل واقعنا المعاش تدعونا حتماً إلى التفكير الناقد (المعتمد على الفحص والتمحيص والتدقيق) ، فيما بين أيدينا من قواعد بلاغية أكل عليها الدهر وشرب فتحجرت ، وأصابها الجمود فلم تعد صالحة للنظر أو للقياس .

والحق يقال أن بعض الباحثين الأجلاء قد لمس قبلنا هذا الجمود في قواعد بلاغتنا العربية ، ورأى أن الأمر يستلزم أن نكر كراً على هذا الركام المتراكم الذي طفحت به كتب البلاغة ، ودعوا بكل الصدق والحماس إلى ضرورة استخلاص النافع المفيد منه .

وطالب هؤلاء الأساتذة الذين تعلمنا على أيديهم ونهلنا من علمهم الغزير ، طالبوا بإعمال الفكر المبتكر لتلافي وتقويم ما عسى أن يكون قد ند عن أذهان الباحثين في البلاغة عبر تلك العصور المتطاولة ، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر- : أستاذنا / أحمد مصطفى المراغي في كتابيه : (علوم البلاغة) ، و (تاريخ علوم البلاغة) ، ونذكر كتاب (البلاغة الواضحة) لأستاذنا / على الجارم و مصطفى أمين ، وكتاب (دفاع عن البلاغة) لأستاذنا / أحمد حسن الزيات ، كما نذكر كتابات أساتذتنا الأجلاء : أستاذنا / عباس محمود العقاد ، وأستاذنا الدكتور / طه حسين ، وأستاذنا الشيخ / أمين الخولي ، وأستاذنا الدكتور / إبراهيم سلامة ، وأستاذنا / سلامة موسى ، وأستاذنا / أحمد الشايب ، وأستاذنا الدكتور / بدوي طبانه ، وأستاذنا الدكتور / حفني شرف ، وغيرهم ، وغيرهم .. وكلها كتابات

جادة راقية تعلمنا واستفدنا منها الكثير ، رغم خلافنا الفكري والمنهجي المتواضع مع بعضهم .

ولكن وجهات النظر التي عبر عنها هؤلاء العلماء وغيرهم لم يتسع ضوؤها لينير ، كما لم يتسع صداها ليفيد ، وبقي بين أيدينا من قواعد البلاغة ما يعيد رجوع الماضي ، ويسمح بشيء من الأناقة والزخرف السطحي أحياناً ، وليس هذا ما نبغيه من تجديد أو تطوير .

نعم ، لقد حان الوقت لتجديد بلاغتنا العربية ، وقد توافرت بعون الله الدواعي الكثيرة التي تحتم علينا أن نعيد النظر في قواعدها ، وأن نضع أسساً جديدة للنقد الأدبي المعاصر من واقع الثقافة العميقة التي أضحت حقاً مكفولاً للجميع ، ومن واقع ثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة ، دون أدنى احتياج إلى مناهج وافدة تضر- بخصوصياتنا ولا تفيدنا ، بل أنها تدفع بنا إلى بحر التغريب دون هوادة .

دوافع متضافرة :

هناك دوافع كثيرة متضافرة تلح على مسألة تجديد البلاغة ، منها : -

أولاً :- طبيعة الأدب العربي :

فطبيعة أدبنا العربي أنه متجدد أو قابل للتجدد ، مثله بالطبع كسائر آداب الدنيا ، وأنه تسري فيه دماء الحياة ، وقد واكب قواعد البلاغة منذ زمن طويل ، فقبل العصر- العباسي كانت هناك نظرات صائبة في النقد الأدبي ، وتعليقات عديدة جادة على إنتاج الأدباء ، ومنذ أطل العصر العباسي حركات الترجمة التي نقلت إلى لغتنا العربية بلاغة أرسطو اليوناني ، والعلماء مشغولون بتأصيل قواعد البلاغة العربية ، والدارس لهذه الفترة يعرف أن البلاغة والنقد الأدبي في العصر العباسي سارا في تيارين مختلفين : -

أ - تيار متأثر بالثقافة اليونانية ، وبلاغة أرسطو إلى حد واضح .

ب - تيار من وحي الذوق العربي الخالص .

لقد واكبت البلاغة الأدب العربي ، ولكنها لم تؤثر التأثير الكافي في تصحيح مفهوم الأدب أو معناه كفن ، وشغلت بمسائل جزئية استهلكت طاقتها ، وبددت سلطانها ، مما أعاقها عن حسن القيام على الأدب .

وقد أحسنا في العصر الحديث بعد الشقة بين الأدب والبلاغة ، وذلك لما سرى في حياة الأدب الجديد من تطور ، الأمر الذي يحفز الهمم إلى إعادة النظر في بلاغتنا العربية .

ثانياً - البلاغة هي سناد الأدب :

ينبغي أن يكون في تصورنا وحسباننا أن البلاغة هي سناد الأدب ، قوامة عليه ، وإذا كانت نظرتنا اليوم إلى الأدب نظرة تقدمية أو حديثة ، إذ أن أدبنا صورة لحياتنا الجديدة المتطورة ، فنحن نتظر من الأدب اليوم أن يدفعنا إلى التقدم والتطور ، وأن يزيد إحساسنا بالحياة العصرية الحديثة التي نعيشها ، بشرط الحفاظ الكامل على قيمنا وثوابتنا.

فكيف إذن يلتفت الأدب الحديث إلى البلاغة الجامدة ؟ ، كيف يستوحىها ؟ ، كيف يستفتيها ؟ وكيف يصدر عنها ؟ .

الأمر كما ذكرنا يتأتى من الفارق الكبير بين أدب متطور ، وأدب مدفوع بعوامل النهضة المختلفة ، وآلية التأثير والتأثر أو شراكة الحياة المتجددة المتطورة ، وبلاغة لم تجدد ثيابها ، وقد أبلت أسماها القرون .

وقد جدت - كما نعلم - في فنون الأدب أشياء وأشياء نتابع الآن إبداعاتها ، ولم يرها أدبنا من قبل في كلاسيكياته ، ولم يخض غمارها ، فبأي مقياس نقيم ونقوم ونحلل ونستقرئ وننقد ما جد على أدبنا من فنون ؟

نقول في صراحة لا مواربة فيها : إن نقادنا من المعاصرين بل الذين قبلهم ، منذ الثلث الأول من القرن العشرين ، يستوحون لتلك الفنون الجديدة كالمرس-حيات بأنواعها المختلفة ، والمرس-حيات الشعرية منها على وجه الخصوص ، والقصة ، والأقصوصة ، والرواية ، والشعر الحر ، أو الشعر المنشور ، يستوحون قواعد النقد الغربي بكل آلياته .

نؤكد هنا على أنه لا ضرر ولا ضرار من الاقتباس المفيد ، الاقتباس الواعي ، الاقتباس المازج بين الثابت والمتغير آيين الأصيل والوافد ، ولكننا في نفس الوقت نلح على أن الأدب هو نتاج فكرة ، نتاج إحساس ، فيض مشاعر ، نبع عواطف ، يخرج إلى الناس من أجل المتعة المنطلقة من التذوق الراقى ، ومن تغذية الأحاسيس والسمو بها ، وكذلك إمتاع الوجدان والمشاعر ..

هذا الأدب ينبغي أن تكون مقاييسه كلها نابعة من روح المجتمع الذي يصدر عنه الأدب ، المجتمع الذي هو المستمتع بها ، وهنا لا يصلح للأمر الاستيراد أو التصدير ، كما لا تصلح التخصص أو السوق الحرة أفكل أدب له مجتمعه ، وكل مجتمع له أدبه الذي يعبر عنه ، وبالتالي يستمتع به .

ثالثا - عصر العلم الذي نحياه :

نحن الآن نعيش عصر المعلومات والاتصالات ، عصر التكنولوجيا والحاسب الآلي ، والاتجاه الذي يسود فكر الناس ، وطرائق تفكيرهم هو العلم أو فلنقل الاتجاه العلمي

المتعمق ، ومن هنا كان لازماً علينا أن نغير مقاييس بلاغتنا العربية بروح من البحث العلمي الخصب المتعمق .

وهنا أحب أن أذكر ملاحظة مهمة : أننا حين نكسب بلاغتنا روحاً من الخصوبة والتعمق لا نقصد على الإطلاق أن ننحرف بها عن ميدانها الأصيل ونعني به الهيمنة على الأدب كفن ذوقي في المقام الأول ، يقصد به الاستمتاع الفني أو الدفع القوي إلى أعلى مراتب السمو الوجداني والنفسي .

ونحن نرى مقدار ما خاضت فيه الدراسات النفسية بجميع فروعها ، وما جد على حياتنا المعاصرة من علوم إنسانية نافعة ، فعلم الجمال وأبحاث التذوق الفني ، وعلم النفس الأدبي وغيرها من العلوم ، وكذلك الدراسات التي بحثت الصلات الواسعة بين الفنون التشكيلية المختلفة ، والموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، والشعر أو النحت ، وعلى الإجمال كل الفنون المعبرة عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه في مختلف المناحي .

ولعل هذا كله يدفعنا دفعاً إلى إعادة النظر في قواعد بلاغتنا العربية ، ونقدنا الأدبي على أساس متعمق خصب يستلهم هذه المنابع الفنية التي برزت في عصرنا .

رابعاً : مهمة البلاغة :

ينبغي لنا أن نحدد مهمة البلاغة الحديثة في ظل الأدب ، وقد يكون واضحاً للمتابع أن مهمة الأدب هي : إمتاع الذوق ، وإعلاء الفكر بما يصوره لنا من خوالج النفس السوية ، وومضات الفكر الباهر .

إذن فلتكن البلاغة قواماً أميناً يرسم الطريق للذوق الأصيل كي يطرد الابتذال والسوقية والعشوائية من حياتنا ، ويشرح المنهج للفكر الواعي المستنير الذي نحن في أمس الحاجة له .

وهنا يقفز - على الفور - سؤال يعترض أذهاننا ، سؤال متوقع من المتابع لسطورنا ألا وهو: هل كانت البلاغة القديمة مما يرسم الذوق، ويبين قصد السبيل للبصر- النافذ الحساس؟!!

أعتقد أن البلاغة العربية القديمة أوغلت في شعاب من جمود الفكر ، وصخور من تحجر الحس حتى كادت تنفصل عن الأدب انفصلاً تاماً ، وتفترق إلى طريق غير الطريق . وعليه نصرخ من الأعماق: إن مشكلة البلاغة أزمنت وتعقدت، وهي تطلب التيسير، وتناشدنا أن نسارع إلى ذلك.

عندما يسيطر المنطق :

أعود لأقول: إن سيطرة الذهن والمنطق أو العقلانية المجردة على ما هو وجداني، أو على ما هو بسبيل الوجدان أمر شاذ كل الشذوذ ، غريب كل الغرابة ، وهذه هي مشكلة البلاغة العربية ، وعقبتها الكئود .

ليست البلاغة منطقاً آرسطياً بحتاً ، وليست قواعد بروتوكول ، أو أسس كهنوتية جافة جامدة لا تقبل الأخذ والرد ، أو التجديد والتطور ، وإنما هي قواعد الذوق الشفاف ، قواعد الوجدان المنطلق ، الوجدان الهائم الذي ينشد أناشيد الفن الجميل الصادق ، ناظراً في جمال الحياة ، يستكنه هذا الجمال ، ويسبر أغواره ، فيكسبه فناً من التعبير يتملاه الذهن الرفيف ، والحسن الذواق ، فناً نقياً رائعاً جميلاً ، تستعلي به النفس ، ويستمتع به الوجدان في سماء الصفاء والنقاء والطهر بعيداً عن دنيا الواقع بكل صغائره وسفاسفه .

أقول لكم : حين بدأت البلاغة بقواعد أرسطو في العصر العباسي سارت في دروب مظلمة ، مرتطمة بصخور قاسية في شعاب الذهن الجامد المدلهم ، وأصبحت وهي فن الذوق الجميل ، باباً من أبواب المنطق تعيش أبوابها وفصولها على هامش المنطق والفلسفة ، فلا هي من الفلسفة ولا من المنطق ، ولا صلة ولا رحم يجعلها تمت إليهما بنسب .

وكانت مشكلة البلاغة هينة جداً في العصر العباسي أو ذلك حين كان الذوق قوياً خصباً غير معقد ، ولكنها تعقدت فيما بعد وذلك خلال ما تلى الفترة العباسية من عصور ، ففي أيام الأتراك والمماليك عاشت البلاغة العربية أياماً كالحلة حالكة أو كادت أن تلفظ روحها لفظاً في غياهب الذهن المتحجر ، وجفاف القواعد الجامدة .

ولعل المتابع بعد ذلك يرى معنا كيف كان المنطق هو الدعامة التي روعيت في تأصيل قواعد البلاغة أبل كشف أسرار الجمال في التعبير أو في الأسلوب .

وكيف أنه ينبغي أن نرجع البصر أكثر من كرة إلى هذه القواعد فنقوم بفحصها ودرسها وتمحيصها وغربلتها على أساس جديد من دراسة النفس والذوق ، وليسيطر التيار الذوقي / النفسي على قواعد البلاغة بدلاً من المنطق القاسي الواهن .

ولا بد أن نناقش بعض هذه القواعد البلاغية كما رآها البلاغيون أنفسهم ، ثم نقضي- بما نرى من نظر جديد ، ولعل سطورنا أو مناقشتنا هذه فيها ما يكشف عن وجه الصواب ، ويجلي الحقيقة ويكون اقتراب من فصل المقال في هذه المشكلة .

وختاماً :

فإن كل ما نأمله أن تكون سطورنا المتواضعة هذه مجرد لبنة تسير في الاتجاه النقدي الذي نرجوه ونتمناه كلنا لبلاغتنا العربية الجميلة في غمرة الاندفاع العلمي والمعرفي الذي مس كل جوانب حياتنا .

قائمة ببعض الأسانيد والمراجع

- إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970
- ابن جني : سر صناعة الإعراب ، الجزء الأول ، بتحقيق الأستاذة الأجلاء / مصطفى السقا ، و محمد الزفزاف ، وإبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين ، القاهرة ، 1954
- ابن جني ، كتاب الخصائص ، تحقيق / محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، 1952
- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1989 .
- ابن رشيق القيرواني ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، طبعة تونسسية ، 1979
- ابن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، القاهرة ، 1960
- ابن منظور الأفرقي ، لسان العرب ، طبعة بيروتية ، بدون تاريخ
- ابن وهب : أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق / حفي شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، بدون تاريخ
- أبو فراس الحمداني ، ديوان أبي فراس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1981
- أحمد أمين ، فجر الإسلام ، طبعة مشروع مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1999
- أحمد الحوفي ، الغزل في العصر الجاهلي ، دار النهضة للطباعة والنشر ، 1970
- أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، القاهرة ، 1966
- الأصفهاني : أبو الفرج ، الأغاني ، طبعة دار الكتب المصرية ، 1945
- الآمدي : الحسن بن بشر ، الموازنة بين أبي تمام والبحري ، تحقيق / محمود توفيق ، القاهرة ، 1944
- الآمدي : الحسن بن بشر ، الموازنة بين أبي تمام والبحري ، طبعة محمد صبيح ، القاهرة ، 1974
- بدوي طبانة ، قدامه بن جعفر ، القاهرة ، 1959

- بدوي طبانة ، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ، الكتاب مطبوع على نفقة المؤلف ، القاهرة ، 1371 هـ = 1952 م
- البستاني ، محيط المحيط ، بيروت ، 1964 .
- بسيوني عرفه رضوان ، تعابير الجمال البلاغي ، القاهرة ، 1979
- بسيوني عرفه رضوان ، الجمال بين الفلاسفة والبلغاء ، دار الرسالة ، القاهرة ، 1981
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، طبعة بيروتية ، 1990
- الجاحظ : أبو عمرو عثمان بن بحر ، البيان والتبيين ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، 1941
- الجرجاني : عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، 1947
- الحصري القيرواني : أبو إسحاق إبراهيم بن علي ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1969 .
- حفني محمد شرف ، البلاغة العربية : نشأتها وتطورها ، مكتبة الشباب القاهرة ، 1973
- خليل مردم ، ديوان خليل مردم ، دمشق ، بدون تاريخ
- الرماني ، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) ، القاهرة
- الزبيدي ، معجم تاج العروس ، القاهرة ، 1960
- شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ، دار المعارف ، القاهرة ، 1980
- شوقي ضيف ، البلاغة : تطور وتاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، 1999
- طه إبراهيم ، تاريخ النقد العربي ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، 1971
- عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، طبعة وزارة التربية والتعليم المصرية ، القاهرة ، 1977
- عبد الله درويش ، المعاجم العربية ، القاهرة ، 1971
- عبد الكريم الخطيب ، إعجاز القرآن ، القاهرة ، 1970
- عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، بدون تاريخ
- العسكري : أبو هلال ، كتاب الصناعتين ، طبعة القاهرة / الأستاذة ، 1320 هـ

- العوضي الوكيل ، الشعر بين التطور والجمود ، القاهرة ، 1977
- الغزالي : أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، طبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، 1969
- الفيروز ابادي ، القاموس المحيط ، القاهرة ، 1970 .
- القاضي الجرجاني : عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ، 1967
- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، القاهرة ، 1989
- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، القاهرة ، 2000
- محمد أحمد المرشدي مع آخرين ، الأدب والنصوص ، الجزء الأول ، مطابع وزارة التربية والتعليم المصرية ، القاهرة ، 1978
- محمود جاد الرب ، محاضرات في المعاجم العربية وبعض المراجع اللغوية القديمة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1971 / 1972 ،
- مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، القاهرة ، بدون تاريخ
- هاشم عطية ، الأدب العربي و تاريخه ، مطابع المعاهد الأزهرية ، القاهرة ، 1976
- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ، 1943
- يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المعاجم العربية ، الطبعة الرابعة ، دار الجليل ، بيروت ، 1991
- يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، 1992
- يسري عبد الغني عبد الله ، دراسات في أدبي الجاهلية وصدر الإسلام ، القاهرة ، 2012





د. يسري عبد الغنى

عبد الله

قد يبدو غريباً ولنظرة الأولر
 ان يكون البصالي قاسماً مشتركاً بين المفكرين و علماء البلاغة
 فالبصيرة العليم، ولكن الذي يتبع آثاراً أهل الفكر
 ونظرات أهل البلاغة، يستطيع ان يدرك من ضلالها
 ان التعبير عن البصالي والبصيرة عن مظاهره وصوره النصيب
 والمعنوية، كان اعظم الغايات التي يهدف اليها كل من
 . المفكرين ورجال البلاغة

مقتطف من الكتاب



منشورات صفحة البراعة الإحقة - 2016

تطوان - المغرب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تصميم الغلاف
 عز الدين العمراني